الدراية
مجلة علمية محكمة
تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدسوق

(لامِيَّة المُتَنَبِّي في مَدْح أَبِي شُجاع فاتِكٍ المَجْنون)

" دراسة بلاغية تحليلية "

أ . د / طلعت عبد الله بسيوني أبو حلوة

أستاذ مساعد في كلية الدراسات الإسلامية

والعربية للبنين - جامعة الأزهر/ فرع دسوق

(بسم الله الرحمن الرحيم)

المقــدمة

الحمد لله الذي جعل كلام العرب أحلى من الضَّرَب ، وجعل معرفته من أقوى دواعي الطَّرَب ، وخَصَّ البُلغاء بورود موارد الأَدَب ، ففازوا بغاية من المأمول ونهاية الأَرَب ، نحمده – سبحانه وتعالى – على نعمة البيان حمد الشاكرين ، ونشكره شكر المستزيدين ، ونُثْني عليه ثناء المخبتين المخلصين ، والصلاة والسلام الأتمّان الأكملان على أفصح العرب وأبلغهم أجمعين ، والمبعوث إلى الأحمر والأسود بمعجزة اللسان العربي المبين ، والمرسل من ربه رحمة للعالمين ، والمُصْطَفَى من خير خلقه الطَّيِّبين الأَكْرَمِين ، وعلى آله البَرَرة الطاهرين ، وصحبه الأخيار المُنْتَخَبِين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبــــعد

فإن الاقتراب من إبداع أبي الطيب المتنبي الشاعر الأشهر الذي بلغ في الشعر الغاية والنهاية يعد مغامرة بحثية شاقة ، ومخاطرة علمية مضنية ، ولكنها تبدو ضرورية وممتعة في نفس الوقت ، فما أجمل أن يعيش الباحث رَدَحًا من عمره ، ويُسَرِّح في عالم الإبداع نظره ، مع شاعر العراق والعربية الأكبر الذي جاء بشعره فملأ الدنيا وشغل الناس منذ أكثر من ألف عام ، وما زال إلى الآن قبلة الدارسين والمتذوقين ، ووجهة المُنَقِّبين والباحثين عن الأسرار الشعرية العربية الأصيلة ، مع طليعة الشعراء المُفْلِقِين المبدعين ، وأُعْجُوبة الأدب ، ومفخرة العرب ، ودُرّة الزمان ، وأُحْدُوثة المكان ، ولله درّ أبي القاسم المُظَفَّر بن عَلِيّ الطَّبَسِيّ في رثائه له حيث قال :

ما رأى الناسُ ثانيَ المُتَنَبِّـــــــــي ... أيُّ ثـــانٍ يُــرَى لِبِــكْرِ الــزَّمانِ

كانَ في لَفْظِهِ نَبِيًّا ولـــــــكنْ ... ظَهَرَتْ مُعْجزاتُهُ في المَعـــــــاني (١)

وبـــمطـــالـــــعة سجل الدراسات ومراجعة مسلسل الأبحاث في عالم الإبداع الشعري لشاعر العربية الأكبر المتنبي – وهي على الكثرة والوفرة بمكان – لم أجد دراسة بلاغية مستقلة تبرز ما تضمنته هذه الدرّة الفريدة ، والقلادة النفيسة ، وما انطوت عليه تلك القصيدة الرائعة البديعة من محاسن عالية ، وفوائد سامية ، ولطائف رائعة ، وبدائع فائقة .

هـــذا ، وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع عدة دوافع من أهمها ما يلي :

أولًا – حبي وعشقي لأبي الطيب منذ أن تعرفت على جوانب من شخصيته الفذّة وإبداعه العجيب حينما كُلِّفْتُ بعمل بحث عن " المتنبي حياته وشعره " وأنا في الفرقة الأولى من المرحلة الجامعية ، فرأيت في ذلك العجب العُجاب الذي يذهل النفوس ، ويدهش العقول ، ويخلب الألباب ؛ ولذا فقد رأيت أن أعاود البحث في هذا العالم الزاخر العجيب ؛ لعلي أستزيد من عطاء هذا البحر الخِضَمّ الذي كان في كل عصر – وما زال – مَدَدًا لكل كاتب ، ومَثَلًا لكل خاطب .

ثانيًا – ما وجدته في هذه القصيدة الفريدة ، واللامية الجيدة ، للفصيح الماهر ، والبليغ الساحر من فرائد مُنَمَّقة ، وقلائد مُنَسَّقة ، وفوائد بديعة ، ولطائف عجيبة ، ومحاسن فريدة أسهمت في بلاغة الأسلوب شكلًا ومضمونًا .

ثالثًا – أن أشارك ولو بلبنة في بناء هذا الصرح العظيم الشامخ ، وأن يكون لي – ولو شرف المحاولة – نصيب في كشف المستور ، وتجلية الخَفِيّ من إبداع هذا الشاعر الفحل العملاق الذي كان ينطق عن خواطر الناس ؛ لعلي أوفّي بعض ما عليّ له من أياد جَلَّتْ عن الذكر والتعريف .

---

(١) بغية الطلب ٢ / ٦٨٦ / لابن العديم / تحقيق : د / سهيل زكار / دار الفكر / بيروت / لبنان / بدون تاريخ ، تاريخ دمشق ٧١ / ٨٤ // لابن عساكر / تحقيق محب الدين العمري / دار الفكر / بيروت / لبنان / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م ، والبيتان من الخفيف .

وبـــــــما أن العمل البحثي لا يخلو من صعوبات ، ولا سيما إذا كان في شعر المتنبي، ذلك البحر الخِضَمّ الزاخر الذي كثرت حوله الشروح ، واحتدمت فيه الخصومات الأدبية والنقدية ، ولابد دون الشهد من إبر النحل ، ولله درّ الخنساء حيث قالت :

فَمَنْ ظَنَّ مِمَّنْ يُلاقِي الخُرُوبَ ∴ بأنْ لَنْ يُصابَ فَقَدْ ظَنَّ عَجْزَا (١)

وقد واجهني في هذا البحث – والطريق وَعْر وشاقّ – عدة صعوبات من أهمها :

أولًا – عدم العثور على دراسة مستقلة لهذه القصيدة الرائعة ؛ كي أسترشد وأستضيء بها ، وذلك رغم كثرة الدراسات التي قامت حول المتنبي وشعره ، والتي لم يحظَ بها شاعر آخر لا في القديم ولا في الحديث .

ثانيًا – عمق المعاني في شعر المتنبي ؛ لأنه كان يخترعها ويبتدعها ، ويتغلغل فيها ويستوحيها ، هذا بالإضافة إلى أنه كان يتجاسر في ألفاظه ويفتنّ فيها كما كان يفتنّ في معانيه ، الأمر الذي كان يتطلب إعمال الفكر ، ومعاودة النظر ، وطول البحث ، وتكرار التأمل .

ثالثًا – أن عبارة المتنبي قد تكون بخيلة البوح بمكنونها ، وضنينة الإفضاء بأسرارها في بعض الأحيان ، الأمر الذي كان يجعل الشرّاح يختلفون في تفسيرها ، ويختصمون في فهمها وبيانها ، ويختلفون بين مادح وقادح .

هـــذا ، ولقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي في مقدمة ، وتمهيد ، وستة مباحث ، وخاتمة .

أما المقدمة فقد تحدثت فيها عن أهمية موضوع هذا البحث، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة ، وأهم صعوباته .

---

(١) ديوان الخنساء دراسة وتحقيق / ١٩٨ / من المتقارب / د / إبراهيم عوضين / دار السعادة / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م .

وأما **التمهيد** فقد تعرضت فيه للتعريف بالمتنبي الذي أسدل التاريخ ستائر النسيان والكتمان على الكثير من جوانب حياته وأسرته ، فبدايات أبي الطيب يلفها الظلام ، ويكتنفها الغموض ، كما تعرضت فيه أيضًا للتعريف بالممدوح ، وذكرت فيه مناسبة القصيدة وتاريخها ونصها .

وأما **المبحث الأول**:فهو بعنوان (إحسان أبي شجاع إلى المتنبي وشكر المتنبي له) .

وأما **المبحث الثاني** : فهو بعنوان (شجــاعة أبــي شجاع وحكمـــتـــه) .

وأما **المبحث الثالث** : فهو بعنوان (كرم أبـــي شـــجاع) .

وأما **المبحث الرابع** : فهو بعنوان (شجاعة أبي شـــجـــاع) .

وأما **المبحث الخامس** : فهو بعنوان (حكمة شخصية أبي شجاع وعظمتها) .

وأما **المبحث السادس** : فهو بعنوان (من بدائع حِكَم المتنبي) .

وقد وقفت مع الأبيات التي اشتمل عليها كل مبحث من هذه المباحث بيتًا بيتًا ، وذلك من حيث موقعه من القصيدة ، وما انطوى عليه من أسرار بلاغية ، ولطائف بيانية ، ومحاسن بديعية ، ومظاهر جمالية ، وفوائد تربوية أسهمت في بلاغة الأسلوب شكلًا ومضمونًا .

وأما **الخاتمة** فقد رصدت فيها ما توصّل إليه هذا البحث من نتائج وتوصيات .

هـــــذا ، والحمد لله – وهو أهل الثناء والحمد – الذي وفقني لكي أوفّي بعض ما عليّ لهذا الشاعر الكبير العظيم ، وما وُجِد في هذا البحث من هَنات فمن نفسي ، وما وُجِد فيه من توفيق فمن الله – ﷻ – وحده ، وتلك طبيعة العمل البشري ، إلا من عصم ربي ، والكمال المطلق لا يكون إلا لله – ﷻ – وحده ؛ ولذا فإني أستميح من يقرأ هذا العمل المتواضع أن يسد ما يجده من خلل ، وأن يتجاوز عن الزلّات ، وأن يغض الطرف عن الهفوات ، ولله دَرُّ ابن أبي الإصبع حيث قال :

ما أَحْسَنَ الإِغْضاءَ من مُنْصِفٍ   يَعْلَمُ أَنَّ الكامِـــــلَ اللّهُ

إنْ أَبْصَرَتْ عَــيْـناكَ عَيْبًــا فَــجُدْ بِفَضْـــلِ عَفْوٍ عِنْدَ رُؤْيــــاهُ [١]

(١) تحرير التحبير / ٦٢٢ / من السريع / تحقيق : د / حفني محمد شرف / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

التمهيد :

ويشتمل على ثلاث نقاط ، هي على النحو التالي :

أولًا – التعريف بالمتنبي :

أ – اسمه ونسبه : هو أبو الطَّيِّب أحمد بن الحُسَيْن بن الحَسَن بن عبد الصَّمَد الجُعْفِيّ الكِنْدِيّ الكُوْفِيّ الشَّهِيْر بالمُتَنَبِّي [١] . وقيل : هو أحمد بن الحُسَيْن بن مُرَّة بن عبد الجَبَّار [٢] ، وكان المتنبي يكتم نسبه ، وحينما سئل عن ذلك أجاب بأنه ينزل دائمًا بعشائر العرب وقبائلها ، ولا يحب أن يعرفوه خيفة أن يكون لهم في قومه ثأر[٣].

ب – مولده : لقد ذكر الرواة أن المتنبي وُلِدَ بالكوفة في مَحَلَّة تُسَمَّى كِنْدة سنة ثلاث وثلاثمائة هجرية / خمس عشرة وتسعمائة ميلادية [٤] .

ج – نشأته : لقد نشأ المتنبي نشأة فقيرة ، حيث كان أبوه سقّاء للماء ، وليس ذا صيت وشأن ، قد أرسله أبوه حين درج إلى مدارس العلويين في الكوفة ؛ ليتعلم فيها القراءة والكتابة ، واختلف إلى كُتّاب فيه أشراف أولاد الكوفة ، فكان يتعلم فيه الشعر ودروس العلوية شعرًا ولغة وإعرابًا [٥] ، وأخذ يختلف إلى

---

(١) بغية الطلب ٢ ٦٣٩ ، وفيات الأعيان ١ / ١٢٠ / لابن خلكان / تحقيق : د / إحسان عباس / دار صادر / بيروت / بدون تاريخ ، الأعلام ١ / ١١٥ / للزركلي / دار العلم للملايين / بيروت / لبنان / الطبعة الخامسة عشرة / ٢٠٠٢ م .

(٢) بغية الطلب ٢ / ٦٣٩ ، وفيات الأعيان ١ / ١٢٠ ، لسان الميزان ١ / ٤٤٠ ، ٤٤١ / لابن حجر العسقلاني / تحقيق : عبد الفتاح أبوغدَّة / دار البشائر الإسلامية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .

(٣) تاريخ دمشق ٧١ / ٧٩ ، بغية الطلب ٢ / ٦٤١ .

(٤) يتيمة الدهر ١ / ١٤١ / للثعالبي / تحقيق : د / مفيد محمد قميحة / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م ، رسالة الغفران / ٤٢٥ / للمعري / تحقيق : د / عائشة عبد الرحمن / دار المعارف / القاهرة / الطبعة التاسعة / بدون تاريخ ، بغية الطلب ٢ / ٦٤١ ، سِيَر أعلام النبلاء ١٦ / ١٩٩ / للذهبي / تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، أكرم البوشي / مؤسسة الرسالة / بيروت / الطبعة الحادية عشرة / ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، لسان الميزان ١ / ٤٤١ ، الأعلام ١ / ١١٥.

(٥) بغية الطلب ٢ / ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، خزانة الأدب ٢ / ٣٤٧ / للبغدادي / تحقيق : عبد السلام محمد هارون / مكتبة الخانجي / القاهرة / الطبعة الرابعة / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

دكاكين الورّاقين لمطالعة بعض الكتب وكان من أذكياء عصره [١] ، ثم ذهب إلى البادية وأقام بها سنتين يطلب الأدب وعلوم العربية لتقويم لسانه وتَعَلُّم اللغة الخالصة ، ثم عاد إلى الكوفة وأخذ يدرس الشعر العربي بعناية ، وخاصة شعر أبي نواس وابن الرومي ومسلم بن الوليد ، وعُنِيَ على الأخص بدراسة شعر أستاذه أبي تمام وتلميذه البحتري ، فقد كان يحفظ ديوانيهما ، ويستصحبهما في أسفاره [٢] ، وقال الشعر صبيًا [٣] ، ثم اتجه إلى الشام ؛ ليعمق تجربته في الحياة ، وليصبغ شعره بلونها ، ثم رحل إلى بغداد وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وفيها تعرف على الوسط الأدبي ، وحضر بعض حلقات اللغة والأدب ، ثم احترف الشعر ومدح رجال الدولة ، ثم رحل بعدها برفقة والده إلى بادية الشام يلتقي الأمراء ويمدحهم ، وتوفي أبوه وقد ترعرع أبو الطيب وشَعَرَ وبَرَعَ ، ونال حظه من علوم اللغة والأدب ، كل هذا ومخايله نواطق بفضله ، وضوامن لنُجْحه [٤]، ثم أخذ يتنقل بين مدن الشام يمدح الأمراء والوزراء ابتغاء للرزق واكتسابًا للمجد .

د – تلقيبه بالمتنبي : لقد لُقِّبَ المتنبي بهذا اللقب ، واختلف العلماء والمؤرخون في سبب تلقيبه بهذا اللقب اختلافًا كثيرًا حتى شرّقوا وغرّبوا ، فمنهم من يرى أنه لُقِّبَ بهذا اللقب ؛ لأنه تنبّأ في بادية السَّماوة ، وتبعه خَلْق كثير من بني كلب وغيرهم ، فخرج إليه لؤلؤ أمير حمص فأسره وأودعه في السجن ، وتفرّق عنه أصحابه ، ثم استتابه وأطلقه [٥] ، وقيل : لأنه قال " أنا أول من تنبّأ بالشعر " [٦] .

(١) تاريخ دمشق ٧١ / ٧٨ ، الصبح المنبي / ٢٠ / للبديعي / تحقيق : مصطفى السقا ، محمد شتا / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثالثة / بدون تاريخ .
(٢) خزانة الأدب ٢ / ٣٥٠ .
(٣) تاريخ دمشق ٧١ / ٨٢ ، خزانة الأدب ٢ / ٣٤٧ .
(٤) يتيمة الدهر ١ / ١٤١ .
(٥) وفيات الأعيان ١ / ١٢٢ ، سير أعلام النبلاء ١٦ / ٢٠٠ ، الأعلام ١/ ١١٥ ، العود الهندي ٢ / ٣١٥ / لعبد الرحمن بن عبيد الله السَّقاف / تحقيق : محمد مصطفى الخطيب / دار المنهاج / جدة / الطبعة الثانية / ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
(٦) وفيات الأعيان ١ / ١٢٢ .

وذكر ابن جني أنه لُقِّبَ بالمتنبي لتشبهه بالأنبياء في قوله:

أَنا في أُمَّةٍ تَدارَكَها اللّـــــ ـــهُ غَريبٌ كَصالِحٍ في ثَمُودِ (١)

وذكر أبو العلاء المعرّي أن المتنبي لُقِّبَ بهذا اللقب اشتقاقًا من النَّبْوَة ، أي المرتفع من الأرض (٢) ؛ وذلك لارتفاع شعره عن شعر غيره ، وهذا الرأي هو ما أميل إليه ، إذ إن فكرة ادعائه النبوة لعلها تُهْمة دُبِّرَت له لغرض سياسي أو غيره ، أما ارتفاع شعره عن شعر غيره فهو أمر من الوضوح بمكان ، وهذا ما شهد له به القاصي والداني ، بل العدو قبل الصديق .

ويرى العلّامة الأستاذ / محمود شاكر أن المتنبي لم يَدَّعِ النُّبُوَّة ، وإنما ادَّعى النسب العلوي ، وأنه حُبِسَ واسْتُتِيْبَ من أجل ذلك (٣) ، ونفى أستاذنا الدكتور / شوقي ضيف قصة التنبؤ عن المتنبي ، وذكر أنها منتحلة عليه (٤) .

٥ – اتصاله بالأمراء : لقد اتصل المتنبي بكثير من الأمراء ، ومدحهم ، ونال الكثير من جوائزهم وهداياهم ، ومن أشهر هؤلاء الأمير سيف الدولة بن حمدان ، حيث التحق به المتنبي في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، فقرَّبه سيف الدولة ، وأكرمه وأجازه الجوائز السَّنِيَّة ، ومكث المتنبي في بلاطه تسع سنوات ، وأكثر فيه المدح ، وكان شاعره المفضل ، وقد سَجَّلَ بشعره مفاخر هذا القائد العربي ومعاركه وبطولاته (٥) .

ثم فارق سيف الدولة بعد ما وقع بينه وبين ابن خالويه في مجلس سيف الدولة ، ودخل أرض الكنانة مصر سنة ست وأربعين وثلاثمائة ، والتقى فيها بكافور

---

(١) الفسْر ١ / ٨٩١ ، ٨٩٢ / تحقيق : د / رضا رجب / دار الينابيع / دمشق / الطبعة الأولى / ٢٠٠٤م ، والبيت في ديوان المتنبي / ٢٢ / من الخفيف / المكتبة الثقافية / بيروت / لبنان / بدون تاريخ .
(٢) رسالة الغفران / ٤١٨ .
(٣) المتنبي / ٤٩ ، ٢٠٨ / مطبعة المدني / القاهرة ، دار المدني / جدة / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .
(٤) الفن ومذاهبه في الشعر العربي / ٣٠٤ ، ٣٠٥ / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثانية عشرة / بدون تاريخ .
(٥) بغية الطلب ٢ / ٦٣٩ ، وفيات الأعيان ١ / ١٢٢ .

الإخشيدي ، وأقام عنده أربع سنوات ، ثم هجاه وفارقه حيث لم يطب له المقام عنده [١] .

ثم ذهب إلى بلاد فارس ، ومدح عَضُد الدولة بن بُوَيْه الدَّيْلمي بشيراز ، فأكرمه وأجزل له جائزته [٢] .

و – وفاته : بعد هذه الرحلة العامرة بالأمجاد عاد هذا الشاعر البطل شاعر العربية الأكبر من فارس قاصدًا بغداد ، ثم إلى الكوفة في رمضان سنة أربع وخمسين وثلاثمائة ، وفي أثناء عودته عرض له فاتك بن أبي جهل الأَسَديّ بجماعة من أصحابه ، ومع المتنبي جماعة أيضًا ، وذلك بالقرب من جبل ذَيْر العاقول في الجانب الغربي من سواد بغداد ، فاقتتل الفريقان ، فقُتِلَ المتنبي فَخْرُ العرب ، ودُرَّة الزمان ، وقُتِلَ معه أيضًا ابنه مُحَسَّد وغلامه مُفْلِح[٣] ، وذلك بعد أن ترك لنا ديوانًا يعد مفخرة من مفاخر الأدب العربي ، وغُرَّة في جبين الزمان ، فرحل المتنبي وبقي الدهر راويًا لشعره ومنشدًا ، وظل شعره إلى اليوم مددًا للكُتّاب ، ومصدر إلهام ووحي للشعراء والأدباء .

ز – شعره : " لقد بلغ شعر المتنبي الذروة في النظم ، وأربى على المتقدمين ، وسار ديوانه في الآفاق " [٤] . وجاء شعره صورة صادقة لشخصيته وعصره وحياته المتطورة والمتقلبة والمضطربة ، وأتت معانيه قوية ، وألفاظه جزلة ومُعَبِّرَة ، وأساليبه رصينة ، وأخيلته خصبة ، هذا مع عدم الاحتفال الكثير بالمحسنات البديعية ،

(١) بغية الطلب ٢ / ٦٣٩ ، وفيات الأعيان / ١ / ١٢٢ ، ١٢٣ ، النجوم الزاهرة ٤ / ٩ ، ١٠ / لابن تغرى / تحقيق : محمد شمس الدين / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

(٢) وفيات الأعيان ١ / ١٢٣ ، الأعلام ١ / ١١٥ ، أمراء الشعر العربي / ٣٣٨ / أنيس المقدسي / دار العلم للملايين / بيروت / لبنان / الطبعة الثامنة عشرة / ١٩٩٤ م .

(٣) السابق نفسه ، بغية الطلب ٢ / ٦٨٠ – ٦٨٥ ، البداية والنهاية ١٥ / ٢٧٣ ، ٢٧٤ / لابن كثير / تحقيق : د / عبد الله بن عبد المحسن التركي / دار هجر / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م .

(٤) سير أعلام النبلاء ١٦ / ١٩٩ .

ولا غرو فهو نادرة زمانه ، وأعجوبة عصره ، وشاعر العربية الأكبر عبر العصور ؛ ولذا فقد تبارى الكُتّاب والعلماء والشعراء قديمًا وحديثًا في الكتابة عن شعره ، يقول ابن رشيق القيرواني ضمن " باب المشاهير من الشعراء " بعد أن ذكر كلًّا من أبي نواس والبحتري وابن المعتز : " فإن هؤلاء الثلاثة لا يكاد يجهلهم أحد من الناس ، ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا ، وشغل الناس " (١) .

ولقد قال القاضي الفاضل لابن الأثير حينما سأله عن سبب إعجاب الناس في مصر بشعر المتنبي دون غيره : " إن أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس " (٢) .

وقال ابن خلكان : " وأما شعره فهو في النهاية ... واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ، وقال لي أحد المشايخ الذين أخذت عنهم : وقفت له على أكثر من أربعين شرحًا ما بين مطولات ومختصرات ، ولم يفعل هذا بديوان غيره " (٣) .

وقال الشاعر أبو العباس أحمد بن محمد النامي : " كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي " (٤) .

وهكذا فقد أتيح للمتنبي مكانة سامية لم يُتَح مثلها لغيره من شعراء العربية ، ولم يحظ ديوان شعر بمثل ما حظي به ديوانه عند العرب وغيرهم ، فقد سار شعره في البلاد سير الرياح ، وطار في الآفاق بغير جناح .

ثـــانيًـــا – التعريف بالممدوح : هو فاتك الروميّ ، الملقب بالمجنون لفَرْط شجاعته وكثرة إقدامه ، والمُكَنَّى بأبي شجاع ، أُخِذَ صغيرًا هو وأخ له وأخت لهما من بلاد الروم ، وتعلم الخط في فلسطين ، وهو ممن أخذه الإخشيد من سيده بالرملة كَرْهًا بلا ثمن ، فأعتقه وأقطعه " الفيوم " وأعمالها ، فأقام بها ،

(١) العمدة ١ / ١٠٠ / تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الجيل / بيروت / لبنان / الطبعة الخامسة / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .
(٢) الوشي المرقوم / ١٨٣ / لابن الأثير / تحقيق : يحيى عبد العظيم – ضمن سلسلة الذخائر – العدد : ١٢١ / أول يوليو / ٢٠٠٤ هـ / الهيئة العامة لقصور الثقافة / مصر .
(٣) وفيات الأعيان ١ / ١٢١ .
(٤) السابق / نفس الجزء والصفحة ، لسان الميزان ١ / ٤٤٢ .

وهي بلاد وبيئة كثيرة الوخم ، فلم يصح له بها جسم ، واستحكمت العلة في جسمه ، وأحوجته لدخول مصر للمعالجة ، وتعرف فيها بالمتنبي ، حيث التقيا في الصحراء مصادفة من غير ميعاد ، واتصلت المودة بينهما ، وأرسل إليه هدية قيمتها ألف دينار ، وأتبعها بهدايا أخرى ، فاستأذن المتنبي كافورًا في مدحه فأذن له ، فمدحه في التاسع من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة من هجرة الهادي البشير

– ﷺ – بقصيدته المشهورة ، وهي من غُرَر القصائد ودُرَرها [١] ، وهي موضوع بحثنا ، ومطلعها :

لا خَيْلَ عِندَكَ تُــهْــدِيهَا وَلا مَالُ فَلِيُسْعِدِ النُّطْقُ إنْ لم تُسعِدِ الحَالُ [٢]

وتوفي بمصر لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة خمسين وثلاثمائة هجرية ، ورثاه المتنبي [٣] .

ثـــالثًا – مناسبة القصيدة وتاريخها ونصها :

أ – مناسبة هذه القصيدة وتاريخها : لقد ذكر بعض مؤرخي الأدب وشُرّاح ديوان المتنبي أن فاتكًا كان يسأل عن المتنبي ، ويراسله بالسلام ، ثم التقيا في الصحراء من غير ميعاد ، وجرت بينهما حوارات ومفاوضات ، فلما رجع فاتك إلى داره حمل إليه هدية قيمتها ألف دينار ، ثم أتبعها بهدايا أخرى ، فمدحه المتنبي

(١) لقد ذكر الدكتور / شوقي ضيف أن مدح المتنبي فاتكًا بهذه القصيدة فيه فتور وينقصه الحيوية ؛ لأنه مدحه دون أن يراه . الفن ومذاهبه في الشعر العربي / ٣٠٨ . وأنا وإن كنت أوافق الدكتور / شوقي ضيف في أن المتنبي مدح فاتكًا دون أن يراه ، فلست أوافقه في وجود الفتور ونقصان الحيوية في هذه القصيدة ، حيث إن أسلوبها البديع ، ومضمونها الرائع ، وما اشتملت عليه من لطائف المديح وبدائعه وغرائبه يثبت عكس ذلك ، وهذا ما تَجَلَّى لي من خلال دراستي لها.

(٢) ديوان المتنبي / ٤٨٦ .

(٣) وفيات الأعيان ٤ / ٢٢ ، النجوم الزاهرة ٣ / ٣٧٨ ، ٤ / ٧ ، خزانة الأدب ٢ / ٣٥٣ ، الأعلام ٥ / ١٢٦ .

بهذه القصيدة في التاسع من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم [٤] .

(٤) وفيات الأعيان ٤ / ٢١ ، ٢٢ ، معجز أحمد ٤ / ٢٠٤ / للمعري / تحقيق : د / عبد المجيد دياب / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م ، العَرْف الطَّيِّب ٢ / ٣٦٥ / لناصيف اليازجي / دار صادر / بيروت / الطبعة الثانية / ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م .

ب – نــــص القصيدة : قال المتنبي يمدح أبا شُجاع فاتكًا المجنون :

١ – لا خَيْـلَ عِنـدَكَ تُـهْدِيـهَا وَلا مَـالُ   فَلْيُسْـعِدِ النُّطْـقُ إنْ لم تُسـعِدِ الحَـالُ
٢ – وَاجْزِ الْأَمِـيرَ الّـذِي نُـعْمَاهُ فَـاجِئَةٌ   بغَـيرِ قَـوْلٍ وَنُعْمَـى النّـاسِ أَقْـوَالُ
٣ – فَـرُبّمَا جَزَتِ الإحْسَـانَ مُولِيَـهُ   خَرِيدَةٌ مِـنْ عَـذَارَى الحَـيِّ مِكْسَـالُ
٤ – وَإنْ تكُنْ مُحْكَماتُ الشُّكْلِ تَمْـنَعُني   ظُهُورَ جَـرْيٍ فَلِـي فِيهِـنّ تَصْـهالُ
٥ – وَمَا شَـكَرْتُ لأَنَّ الْمَـالَ فَرَّحَنِـي   سِـيّانِ عِنْـديَ إكْثَـارٌ وَإقْـلالُ
٦ – لَـكِنْ رَأَيْـتُ قَـبِيحًا أنْ يُجَـادَ لَنـا   وَأنّنَـا بِـقَضَاءِ الـحَقّ بُـخّـالُ
٧ – فـكُنْتُ مَنبتَ رَوْضِ الْحَـزْنِ بـاكَرَهُ   غَـيْثٌ بِـغَـيْـرِ سِباخِ الْأَرْضِ هَطّـالُ
٨ – غَـيْثٌ يُـبَيِّنُ للنُّـظّارِ مَـوْقِـعُهُ   أَنَّ الْغُـيُوثَ بِـمَـا تَـأْتِيـهِ جُهّالُ
٩ – لا يُدرِكُ الْـمَـجْدَ إلاَّ سَـيِّدٌ فَطِـنٌ   لِمَا يَـشُقُّ عَـلَى السّـاداتِ فَعَّـالُ
١٠– لا وَارِثٌ جَهِلَتْ يُـمْـنَاهُ مَـا وَهَبَتْ   وَلا كَسُوبٌ بِـغَيرِ السَّـيْفِ سَـأّآلُ
١١– قَـالَ الـزَّمانُ لَـهُ قَـوْلاً فَـأَفْـهَمَهُ   إنَّ الزَّمَـانَ عَلَـى الْإمْسَـاكِ عَـذّالُ
١٢– تَدري القَـنَاةُ إذا اهْـتَـزّتْ بِـرَاحَتِهِ   أَنَّ الشَّقِـيَّ بِهَـا خَـيْـلٌ وَأبْـطَالُ
١٣– كَـفَاتِـكٍ وَدُخُولُ الْكَافِ مَـنقَصَةٌ   كَالشَّمْسِ قُلتُ وَما لِلشّـمْسِ أَمثَـالُ
١٤– الْقائِـدِ الأُسْـدَ غَـذَّتْهَا بَرَاثِـنُهُ   بِمِـثْـلِهَا مِـنْ عِـداهُ وَهْـيَ أَشْـبَالُ
١٥– الْقاتِلِ السَّيْفَ فِي جِسْـمِ الْقَتِيـلِ بِـهِ   للسُّيـوفِ كَمَـا لِلنَّـاسِ آجَـالُ
١٦– تُـغِـيـرُ عَـنهُ عَلَى الْغارَاتِ هَيْبَتُـهُ   وَمَالُـهُ بأقَـاصِي الْـأَرْضِ أَهْمَـالُ
١٧– لَهُ مِـنَ الْـوَحشِ مـا اخْـتَارَتْ أَسِنّتُهُ   عَـيرٌ وَهَيْـقٌ وَخَنْسَـاءٌ وَذَيّـالُ
١٨– تُـمْسِي الـضُّيُوفُ مُشَهّاةً بِـعَقْوَتِهِ   كَأَنَّ أَوْقاتَـهَا فِي الـطِّـيبِ آصَـالُ
١٩– لَوِ اشْـتَهَتْ لَحْـمَ قارِيهَـا لَبَادَرَهَـا   خَرَادِلٌ مِـنـهُ فـي الشِّـيزَى وَأوْصَالُ
٢٠– لا يَعْرِفُ الـرُّزْءَ فِي مـالٍ وَلا وَلَـدٍ   إلاَّ إذا حَفَـزَ الضِّـيفَانَ تَـرْحَالُ
٢١– يُرْوِي صَدَى الأَرْضِ مِـنْ فَضْـلاتِ ماشَـرِبُوا   مَحْضُ اللِّقَـاحِ وَصَـافِي اللَّـوْنِ سَلْسَـالُ
٢٢– تَقْرِي صَـوَارِمُهُ السّاعـاتِ عَـبْطَ دَمٍ   كَـأَنَّمَا السّـاعُ نُـزّالٌ وَقُـفّـالُ

٢٣- تَجْرِي النُّفُوسُ حَوَالَيْهِ مُخَلَّطَةً ... مِنْهَا عُدَاةٌ وَأَغْنَامٌ وَآبَالُ

٢٤- لا يَحْرِمُ البُعْدُ أَهْلَ الْبُعْدِ نائِلَهُ ... وغَيْرُ عَاجِزَةٍ عَنْهُ الْأَطْيَفَالُ

٢٥- أَمْضَى الفَرِيقَيْنِ فِي أَقْرَانِهِ ظُبَةً ... وَالْبِيضُ هَادِيَةٌ وَالسُّمْرُ ضُلَّالُ

٢٦- يُرِيكَ مَخْبَرُهُ أَضْعَافَ مَنْظَرِهِ ... بَيْنَ الرِّجَالِ وَفِيهَا الْمَاءُ وَالْآلُ

٢٧- وَقَدْ يُلَقَّبُهُ الْمَجْنُونَ حَاسِدُهُ ... إِذَا اخْتَلَطْنَ وَبَعْضُ الْعَقْلِ عُقَّالُ

٢٨- يَرْمِي بِهَا الْجَيْشَ لا بُدَّ لَهُ وَلَهَا ... مِنْ شَقِّهِ وَلَوَ انَّ الْجَيْشَ أَجْبَالُ

٢٩- إِذا الْعِدَى نَشِبَتْ فِيهِمْ مَخالِبُهُ ... لَمْ يَجْتَمِعْ لَهُمُ حِلْمٌ وَرِئْبَالُ

٣٠- يَرُوعُهُمْ مِنْهُ دَهْرٌ صَرْفُهُ أَبَداً ... مُجاهِرٌ وَصُرُوفُ الدَّهْرِ تَغْتَالُ

٣١- أَنَالَهُ الشَّرَفَ الْأَعْلَى تَقَدُّمُهُ ... فَمَا الَّذِي بِتَوَقِّي مَا أَتَى نَالُوا

٣٢- إِذا الْمُلُوكُ تَحَلَّتْ كَانَ حِلْيَتَهُ ... مُهَنَّدٌ وَأَصَمُّ الْكَعْبِ عَسَّالُ

٣٣- أَبُو شُجاعٍ أَبُو الشُّجْعانِ قاطِبَةً ... هَوْلٌ نَمَتْهُ مِنَ الْهَيْجاءِ أَهْوَالُ

٣٤- تَمَلَّكَ الْحَمْدَ حَتَّى ما لِمُفْتَخِرٍ ... فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلا مِيمٌ وَلا دَالُ

٣٥- عَلَيْهِ مِنْهُ سَرَابِيلٌ مُضَاعَفَةٌ ... وَقَدْ كَفَاهُ مِنَ الْماذِيِّ سِرْبَالُ

٣٦- وَكَيْفَ أَسْتُرُ ما أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنٍ ... وَقَدْ غَمَرْتَ نَوَالاً أَيُّهَا النَّالُ

٣٧- لَطَفْتَ رَأْيَكَ فِي بِرِّي وَتَكْرِمَتِي ... إِنَّ الْكَرِيمَ عَلَى الْعَلْياءِ يَحْتَالُ

٣٨- حَتَّى غَدَوْتَ وَلِلْأَخْبَارِ تَجْوَالٌ ... وَلِلْكَوَاكِبِ فِي كَفَّيْكَ آمَالُ

٣٩- وَقَدْ أَطَالَ ثَنَائِي طُولُ لابِسِهِ ... إِنَّ الثَّنَاءَ عَلَى النَّنْبَالِ تِنْبَالُ

٤٠- إِنْ كُنْتَ تَكْبُرُ أَنْ تَخْتَالَ فِي بَشَرٍ ... فَإِنَّ قَدْرَكَ فِي الأَقْدَارِ يَخْتَالُ

٤١- كَأَنَّ نَفْسَكَ لا تَرْضَاكَ صَاحِبَهَا ... إِلاَّ وَأَنْتَ عَلَى الْمِفْضَالِ مِفْضَالُ

٤٢- وَلا تُعُدُّكَ صَوَّاناً لِمُهْجَتِهَا ... إِلاَّ وَأَنْتَ لَهَا فِي الرَّوْعِ بَذَّالُ

٤٣- لَوْلا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَّالُ

٤٤- وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الْإِنْسَانُ طَاقَتَهُ ... مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلالُ

٤٥- إِنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرْكُ الْقَبِيحِ بِهِ ... مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالُ

٤٦- ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّـــانِي وَحَاجَتُـــهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ الْـعَـيْـشِ أَشْغَالُ [١]

المبحث الأول : إحسان أبي شجاع إلى المتنبي وشكر المتنبي له :

يقول المتنبي :

١ – لا خَيْـلَ عِنـدَكَ تُـهْدِيـهَا وَلا مَـالُ فَلْيُسْعِدِ[١] النُّطْقُ إنْ لم تُسـعِدِ الحَـالُ

٢ – وَاجْزِ الْأَمِـيرَ الَّـذِي نُـعْمَاهُ [٢]فَـاجِئَةٌ بغَيرِ قَـوْلٍ وَنُعْمَـى النَّـاسِ أَقْـوَالُ

٣ – فَـرُبَّـمَا جَزَتِ الإِحْسَـانَ مُولِيَـهُ خَرِيدَةٌ[٣] مِنْ عَذَارَى [٤] الحَيِّ مِكْسَالُ

٤ – وَإِنْ تَكُنْ مُحْكَماتُ الشُّكْلِ [٥] تَمْـنَعُنِي ظُهُورَ جَـرْيٍ فَلِي فِيهِـنّ تَصْـهَالُ[٦]

٥ – وَمَا شَـكَرْتُ لأَنّ الْمَـالَ فَرَّحَنِـي سِـيَّانِ عِنْـدِيَ إِكْثَـارٌ وَإِقْـلالُ

---

(١) ديوانه / ٤٨٦ – ٤٩٠ / من بحر البسيط .

(١) يُسْعِد : يُعِيْن ، والإسعاد : المعونة ، يقال : أسعد فلان فلانًا وساعده : أعانه ، وأسعدت النائحة الثَّكلى : أعانتها على البكاء والنَّوْح . لسان العرب /لابن منظور / دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية /١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م ، المعجم الوسيط / مجمع اللغة العربية / مكتبة الشروق الدولية / الطبعة الرابعة / ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م / مادة : سعد .

(٢) النُّعْمَى : الصنيعة والمِنَّة والفضل واليد البيضاء ، يقول ابن منظور : " النَّعِيم والنُّعْمَى والنَّعْماء والنِّعْمة ، كله : الخَفْض والدَّعة والمال " ويقال : رجل مِنْعام : مِفْضال . السابق / مادة : نعم .

(٣) الخَرِيْدة : المرأة الحَيِيَّة الخَفِرة المُتَسَتِّرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت ، والبكْر التي لم تُمَسّ ، يقال : امرأة خَرِيْدة وخَرُود ، والجمع خُرُد وخَرائد وخُرَّد . لسان العرب ، القاموس المحيط / للفيروزآبادي / دار الفكر / بيروت / لبنان / ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م / مادة : خرد .

(٤) عَذارَى : جمع عذراء وهي البكْر التي لم يَمَسَّها رَجُل ، وتجمع على عَذارى وعَذارِي وعَذارٍ – بكسر الراء منونة وغير منونة – وعَذْراوات . السابق / مادة : عذر .

(٥) الشُّكْل : جمع الشِّكال ، وهو القَيْد والعِقال ، ويقال : شَكَل الدَّابّة ونحوها شَكْلًا : قَيَّدها بالشِّكال وشَدَّ قوائمها ، وذلك في الخيل بأن تكون ثلاث قوائم منه مُحَجَّلة والواحدة مُطْلقة . السابق / مادة : شكل .

(٦) تَصْهال : الصَّهِيْل : صوت الفرس ، يقال : صَهَل الفرس يَصْهَل ويَصْهُل – بفتح الهاء وكسرها – صهيلًا وصُهالًا : صَوَّتَ ، وفرس صَهّال : كثير الصَّهِيْل ، والصَّهِيْل والصُّهال للفرس مثل النَّهِيْق والنُّهاق للحَمِيْر . لسان العرب ، تاج العروس / للزبيدي / تحقيق : عبد الستار أحمد فراج /مطبعة حكومة الكويت / ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م / مادة : صهل .

٦ – لَـكِنْ رَأَيْـتُ قَـبِيحًا أنْ يُجَـادَ لَنَـا وَأَنَّنَـا بِـقَضَاءِ الـحَقّ بُـخَّـالُ[٧]

٧ – فَـكُنْتُ مَنبِتَ رَوْضِ الْحَزْنِ[١] بَـاكرَهُ غَـيْثٌ بِـغَـيْـرِ سِباخِ[٢] الْأَرْضِ هَطّالُ[٣]

٨ – غَـيْثٌ يُـبَيِّنُ لِلنُّـظَّارِ مَـوْقِـعُهُ أَنَّ الْغُـيُوثَ بِـمَـا تَـأْتِـيـهِ جُهَّـالُ

من يتأمل هذه الأبيات الثمانية يجد أن المتنبي بعد أن أهداه أبو شجاع ما أهداه من هدايا عظيمة قد وجد نفسه عاجزًا عن الرد على الهدية بمثلها ، فأخذ يعتذر عن عدم امتلاكه للخيل والمال اللذين يقدمهما للممدوح جزاء له على إحسانه ، وأخذ يرد على هذا الإحسان بالمدح والثناء ، ثم ذكر أن نُعْمَى هذا الأمير تأتي فجأة من غير سابق سؤال وانتظار بخلاف نعمى غيره من الناس فإنها مجرد وعود دون وفاء ، وقول دون فعل ، ثم أخذ يستحث نفسه على الجزاء ، فذكر أن الجزاء إن لم يكن ممكنًا فعلًا فهو ممكن قولًا كالمكافأة من الخريدة الخَيِيّة العَذْراء المِكْسال ، كما ذكر أنه إن لم يكن قادرًا على نصرته على كافور فهو يمدحه ويكافئه بالمدح كما أن الجَواد إذا قُيِّدَ عن الحركة صهل حنينًا لها وشوقًا إليها .

ثم ذكر المتنبي أن شكره لممدوحه ليس من أجل فَرَحه بالمال الذي أهداه إليه ؛ لأن الغِنَى والفقر عنده سواء لعدم اكتراثه بالدنيا ، وإنما شكره لأنه يستقبح

---

(٧) بُخَّال : جمع باخل ، يقال : بَخِلَ يَبْخَل بَخَلًا وبُخْلًا وبُخْلًا : ضَنَّ بما عنده ولم يَجُدْ . فهو باخل والجميع بُخَّل وبُخَال ، وهو بَخِيل ، والجمع بُخَلاء . لسان العرب ، المعجم الوسيط / مادة : بخل .

(١) الحَزْن :ما غَلَظ من الأرض وخَشُنَ ، والجمع حُزُون ، ويقال : حَزِنَ المكانُ يَحْزَن حَزَنًا : خَشُنَ وغَلُظ . السابق / مادة : حزن .

(٢) سِباخ : جمع سَبَخَة ، وهي أرض ذات مِلح ونَزٍّ ، وهي سَبخَة . لسان العرب ، تاج العروس / مادة : سبخ .

(٣) هَطّال : كثير الهَطلان ، يقال : هَطل المطر هَطْلًا وهَطلانًا : تتابع متفرقًا عظيم القَطْر . المعجم الوسيط ، تاج العروس / مادة : هطل .

البخل بقضاء الحق والسكوت عن شكر من يجود له بالنعمة الإحسان ، ثم ذكر أن نعمة الممدوح قد أصابت محلها ، ووقعت موقعها فَنَمَتْ وزَكَتْ بالاعتراف بها وأداء شكرها ، فكانت كالغيث الذي أصاب أرضًا طيبة فأنبتت وأثمرت ، ولم تكن كالغيث الذي أصاب أرضًا سَبِخَة ، فلا هي أنبتت ، ولا هي أمسكت الماء ، ثم ذكر كذلك أن وقوع إحسان الممدوح منه يُبَيِّن للمحسنين أنهم يجهلون مواقع الإحسان ، ويخطئون مواقع الصنائع .

وبالنظر في البيت الأول من هذه الأبيات نجد أن المتنبي قد استخدم أداة النفي " لا " النافية للجنس مرتين في قوله : " لا خَيْـــلَ عِندَكَ تُهْـــدِيْهَا وَلا مَالُ " ؛ لأنها تستغرق نفي الحكم عن كل أفراد الجنس ، فالنفي بها عام ، وهي هنا نفت العِنْدية عن كل جنس الخيل والمال ؛ ولذلك سُمِّيَت بـــ " لا " التبرئة " ؛ لأنها تدل على تبرئة جنس اسمها من معنى الخبر ... ولقوة دلالتها على النفي المؤكد أكثر من أدوات النفي الأخرى " [١] ، ويؤازر هذا الاستغراق تنكير كلمتي " خيل " و " مال " ، ومن المعلوم أن النكرة في سياق النفي تفيد العموم ، وأُعِيد ذكر " لا " النافية هنا في قوله : " ولا مال " لتوكيد النفي ، وهذا أبلغ في تقديم العذر من المتنبي ، وأدعى لقبول الممدوح لهذا العذر .

وفي مخاطبة المتنبي نفسه في قوله : " عندك " تجريد ، حيث انتزع من نفسه شخصًا مثله في فَقْد الخيل والمال وخاطبه ، وتكمن بلاغة هذا التجريد في الدلالة على المبالغة ، حيث إن المتكلم يكون " كأنه يجعل نفسه لكمال الإدراك كأن فيها نفسًا أخرى " [٢] ، هذا بالإضافة إلى أن المتكلم باستخدام هذه الصورة من التجريد يستطيع أن يثبت لنفسه ما لا يليق التصريح بثبوته له ، واعْتُبِرَتْ مخاطبة الإنسان نفسه تجريدًا ؛ لأن العرب كانت تعتقد أن في الإنسان معنى كامنًا فيه

(١) النحو الوافي ١ / ٦٨٦ / د / عباس حسن / دار المعارف / مصر / الطبعة الثالثة / بدون تاريخ ، وينظر : شرح التصريح على التوضيح ١ / ٣٣٦ / للأزهري / تحقيق : محمد باسل عيون السود / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .

(٢) عروس الأفراح ٤ / ٣٥٧ / للسبكي / ضمن شروح التلخيص / دار السرور / بيروت / لبنان / بدون تاريخ .

كأنه حقيقته ، فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردًا عن الإنسان كأنه غيره (٣) ، والغرض من هذا التجريد هو تحريض النفس على قيامها بحق من أحسن أليها ، وأزجى إليها الأيادي (١) .

وجاء التعبير بالمضارع " تُهْدِي " للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن عدم وجود خيل عند المتنبي يهديها للممدوح أو مال أمر حادث ومتجدد شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن .

والفاء في قوله : " فليُسْعِدْ النطق إن لم تُسْعِدْ الحال " استئنافية ، فبعد أن اعتذر المتنبي عن عدم امتلاكه لما يكافئ به ممدوحه من خيل أو مال استأنف الحديث ، وأمر نفسه بأن تحسن المكافأة بالنطق – أي بالمدح – إن لم يُعِنْه المال على الإحسان إلى ممدوحه ، والأمر في قوله : " فليُسْعِدْ النطق إن لم تُسْعِدْ الحال " للالتماس ، فهو يأمر نفسه ، ويلتمس منها الإسعاد بالنطق ما دام أنه عاجز عن الإسعاد بالمال ، ويحتمل أن يكون الأمر هنا في جملة " فليُسْعِدْ النطقُ " للحثّ والحضّ ، فهو يحثّ نفسه ويحضّها ويشجعها على مجازاة ممدوحه بالمدح ، حيث إنه لا يملك المكافأة بالمال .

وفي أمر المتنبي النطقَ استعارة مكنية ، حيث شبه النطق بإنسان يؤمر فيجيب ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه ، وهو توجيه الأمر إليه ، وأثبته للمشبه ، وفي هذا لون من التخييل والتجسيم والتصوير ، حيث صَوّر النطق بإنسان .

وتعريف كل من " النطق " و " الحال " باللام للدلالة على الجنس ، أي فليعاونّي وليساعدني القول على مكافأة الممدوح إن لم يعاونّي ويساعدني المال .

---

(٣) الخصائص ٢ / ٤٧٣ ، ٤٧٤ / لابن جني / تحقيق : محمد علي النجار / المكتبة العلمية / بدون تاريخ ، جواهر البلاغة / ٣٠٨ ، ٣٠٩ / هامش رقم : ٢ / للهاشمي / تحقيق : د / يوسف الصميلي / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت / ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٢ م .

(١) التبيان في علم المعاني والبديع والبيان / ٢٨٩ / للطيبي / تحقيق : د / هادي عطية مطر الهلالي / عالم الكتب / بيروت ، مكتبة النهضة العربية / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

وبما أن الإسعاد والمكافأة من قِبَل المتنبي بالخيل والمال الذين عبر عنهما بـــ " الحال " أمر مشكوك فيه وغير محقق الوقوع فقد استخدم المتنبي أداة الشرط " إنْ " في قوله : " إن لم تسعد الحال " ؛ لأن " الأصل في " إنْ " ألا يكون الشرط فيها مقطوعًا بوقوعه " [١] .

واستخدم المتنبي أداة النفي " لم " ؛ لأنها تقلب زمن المضارع إلى الماضي ، والمنفي بها قد يكون " تارة متصلًا بالحال ، وأخرى منقطعًا ، وثالثة مستمرًا " [٢] ، وهو هنا متصل بالحال ، أي لم يسعد الحال لعدم امتلاكي الخيل أو المال في الماضي وإلى الوقت الحاضر ، وهذا أبلغ في العذر ، وأدعى إلى قبوله .

والتعبير بالمضارع " تسعد " للدلالة على التجدد والحدوث ، أي أن نفي الإسعاد بالحال أمر حادث ومتجدد حالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن .

وبين كل من " يسعد " و " لم تسعد " طباق سلب ، حيث إن الفعلين مصدرهما واحد هو " الإسعاد " ، والأول منهما مثبت والثاني منفي ، وفي هذا الطباق ترابط للأسلوب عن طريق علاقة التضاد ، حيث إن الضد أقرب خطورًا بالبال عند ذكر ضده ، والضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تتبين الأشياء ، وفي ذلك أيضًا إيضاح وبيان للمعنى وتوكيد له .

وفي إسناد الإسعاد إلى النطق وكذلك إسناد الإسعاد المنفي إلى الحال مجاز عقلي بعلاقة السببية ، حيث إن النطق أو الحال ليس هو الفاعل الحقيقي ، وإنما هما سببا السعادة ، وإنما أسند الإسعاد إليهما لقوة تأثيرهما في النفس وجلب السعادة لها حتى أصبحا كأنهما الفاعل الحقيقي لها .

---

(١) الإيضاح ١/ ١٨٨ / للخطيب القزويني / تحقيق : د / محمد عبد المنعم خفاجي ، د / عبد العزيز شرف / دار الكتاب المصري / القاهرة ، دار الكتاب اللبناني / بيروت / الطبعة السادسة / ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

(٢) في التحليل اللغوي / ١٨٧ / د / خليل أحمد عمايرة / مكتبة المنار / الأردن / الزرقاء / الطبعة الأولى / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

وفي هذا البيت إيجاز بالحذف ، حيث حذف منه جواب الشرط " إن لم تُسْعِدْ الحال " ، وذلك لدلالة الأمر السابق عليه في قوله : " لِيُسْعِد النُّطْق " ، وفي هذا الحذف مع دلالة السياق على المحذوف إيجاز واختصار للأسلوب وتخفيف له مما يثقل كاهله ، ويؤدي به إلى الترهل .

وفي هذا البيت أيضًا لون بديعي يعد نوعًا من أنواع السجع ، وهو التصريع [١] ، وهو نوع مستحسن في أول أبيات القصيدة ، وهو يدل على اقتدار الشاعر ، وغزارة مادته ، وقوة طبعه ، ويحدث تناغمًا موسيقيًّا يطرب له السمع ، هذا بالإضافة إلى أنه يُعْلِم السامع قافية البيت قبل كماله .

وقد عاب العكبري على المتنبي ابتداء القصيدة بهذا البيت فقال : " وهذا من الابتداء الذي يكرهه السامع بأن يقول للممدوح : لا خيل عندك تهديها ولا مال ، وهو أول ما يقوله له " [٢] .

وهذا البيت – وإن كان العكبري قد عاب ابتداء القصيدة به – إلا أنه يعد من اللآلئ الطيبة ، والدرر السنيّة للمتنبي لما انطوى عليه من خفايا وأسرار ، ولما تضمنه من معنى لطيف ، ومقصد شريف .

ولقد ذكر بعض الشرّاح كالمعري [٣] والعكبري [٤] أن المتنبي نظر في هذا البيت إلى قول الحطيئة :

إن لا يكُنْ مالٌ يُثابُ فَإِنَّهُ ... سـيَأْتِي ثَنائِي زَيْدًا بن مُـهَلْهِـلِ [٥]

وقول يزيد بن المهلّب :

إن يُعْجِزْ الدّهْرُ كَفِّي عَنْ جَزائِكُمُ ... فإِنَّني بالثّنا والشُّكْر مُجْتَهِدُ [٦]

---

(١) التصريع : هو جعل العروض مُقَفّاة تَقْفِية الضرب . الإيضاح ٢ / ٥٦٧ .
(٢) التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٧٧ / تحقيق : مصطفى السقا وآخرين / مطبعة الحلبي / القاهرة / ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .
(٣) معجز أحمد ٤ / ٢٠٥ .
(٤) التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٧٧ .
(٥) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت / ١٦٧ / من الطويل / تحقيق : د / مفيد قميحة / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م .

وبما أن المتنبي قد أبدع في بيته وأجاد وأفاد فإن ذلك لا يعد سرقة ، حيث إن الشعر جادّة ، وربما وقع الحافر على الحافر ، أو لعل ذلك من توارد الخواطر ، أو لعله يرجع إلى " التوليد الذي لا يؤتاه إلا الشاعر المطلق ... فمن ثَمَّ يختلف الشعراء ، ويمتاز واحد عن واحد ، وتَبِيْنُ طريقة من طريقة ، وإن تواردوا جميعًا على معنى واحد ، يأخذه الآخر منهم عن الأول " [1] .

وما زال المتنبي مع التجريد ، حيث أمر نفسه على سبيل التجريد بمجازاة الممدوح في قوله :

وَاجْزِ الْأَمِيرَ الَّذِي نُعْمَاهُ فَاجِئَةٌ بغَيرِ قَوْلٍ وَنُعْمَى النَّاسِ أَقْوَالُ

والغرض من هذا الأمر هو حثّ المتنبي نفسه وحضّها على مجازاة الأمير أبي شجاع بالمدح والثناء ؛ لأن إنعامه يأتيه فجأة ، وإحسانه يبادره بغتة من غير سابق سؤال ، وذلك بخلاف غيره من الناس ، فإنهم يقتصرون على القول دون الفعل .

واللام في " الأمير " للدلالة على العهد الحضوري ، وذلك على اعتبار أن الأمير حاضر وماثل أمام الشاعر وقت إنشاء وإنشاد القصيدة ، وهذا هو الأصل ، ويحتمل أن تكون اللام هنا للعهد الذهني ، أي الأمير المعهود في ذهن الشاعر ، والموجود في خاطره ، وليس موجودًا بجسده أمام الشاعر وقت الإنشاء والإنشاد ، وأيًا كان الأمر فهو أمير معهود لدى الشاعر .

ثم وصف المتنبي الأمير بالاسم الموصول وجملة الصلة في قوله : " الذي نُعْماه فاجئة " لزيادة التقرير والتأكيد لدى السامع ، فهي صفة خاصة بهذا الأمير ، وكأنها أصبحت عَلَمًا عليه ولقبًا له .

---

(٦) لم أعثر له على ديوان ، والبيت موجود في الوساطة بين المتنبي وخصومه / ٢٨٢ / من البسيط / للقاضي الجرجاني / تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م . بلفظ " جزائكم " بدل " " الهوى " بدل " الثنا " .

(١) شرح ديوان المتنبي / ١ / ١٣ / لعبد الرحمن البرقوقي / دار الكتاب العربي / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .

وإضافة " نُعْمَى " إلى ضمير الغائب الهاء العائد إلى الممدوح للتعظيم والتشريف ؛ إذ هي نعمى عظيمة وشريفة من أمير عظيم وشريف ، ومن المعلوم أن عِظَم وقَدْر وشرف النعمى يكون من عِظَم وقَدْر وشرف المُنْعِم .

وفي إثبات المفاجأة للنعمى استعارة مكنية ، حيث شبهت النعمى بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وهو الإنسان ، وأتى بشيء من لوازمه ، وهو المفاجأة ، واشتق منه " فاجئة " ، وأثبته للمشبه ، وفي تلك الاستعارة تجسيم للنُّعْمَى ، وتصوير وتشخيص لها ، حيث أثبت لها المفاجأة ، وهي من صفات الإنسان ، وفي هذا الإثبات ضرب من التخييل يثير عاطفة المتلقي ، ويحرك مشاعره ، ويخلع على الأسلوب حسنًا وبهاء ، ويكسوه رونقًا وجمالًا.

وقوله : " بغير قول " إيغال يدل على المبالغة في المدح بالكرم ، ويوحي بأن نفس الممدوح مجبولة على العطاء ، ومطبوعة على السخاء، فالكرم دأبها وديدنها ، والجود عادتها وسجيتها ، حيث إنها لا تنتظر من يسألها فيحرك فيها مشاعر الكرم والبذل فتسخو وتجود ، ولكنها تعطي من غير سابق سؤال ، ولا آنف وعد ، ولا سابق انتظار .

وفي تنكير لفظة " قول " في سياق النفي دلالة على العموم والشمول ، أي أن نُعْمَى الممدوح تفاجئ مَنْ يجود لهم بها من غير أن يتقدمها أي قول أو سؤال أو وَعْد ، وهذا أبلغ في المدح ، وأدلّ على أن الكرم قد تَمَلَّك من الممدوح ، وسرى في عروقه ولحمه ودمه حتى أصبح سجية له لا يستطيع التخلي عنها ، وغدا خُلُقًا له لا يقدر على الاستغناء عنه .

والواو في جملة " ونُعْمَى الناس أقوال " عاطفة ، حيث عطفت هذه الجملة على جملة " نعماه فاجئة بغير قول " ، والغرض من هذا العطف هو التوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظًا ومعنى ، ولكونهما اسميتين ، ولما بينما من مناسبة بها تتجاذبان وتتآخذان ، وهي ما بينهما من تقابل ، حيث إن الجملة الأولى

تُبَيِّن صورة عطاء الممدوح ، والثانية تُوَضِّح عطاء غيره من الناس ، وهما صورتان متضادتان .

واللام في لفظة " الناس " للدلالة على الاستغراق ، ولعله استغراق عرفي ، أي كل الناس الذين قابلهم في هذا المكان وذلك الزمان ما عدا الممدوح ، فعطايا هؤلاء ونُعْمَاهم مجرد أقوال فقط دون أفعال ، ووعود لا يتصل بها الإنجاز ، وذلك على حد قول أبي تمام :

مُـــلْقَى الرَّجاءِ ومُلْقَى الرَّحْلِ في نَـــفَرٍ ... اَلجُودُ عِـــنْـــدَهُمُ قَوْلٌ بِلا عَـــمَلِ (١)

وفي بيت المتنبي هذا تعريض منه بكافور الإخشيدي (٢) ، حيث إن كافورًا كان يعطيه كلامًا لا يتحصل له منه شيء ، ووعودًا برّاقة دون أن يجد لها صدى ، أو يجني من ورائها ثمرة ، حيث كان المتنبي يطمع في أن يوليه كافور ولاية ، ولكن كافورًا كان يُمَنِّيه ولا يعطيه خشية منه (٣) ، ومن خلال أسلوب التعريض هذا استطاع المتنبي هجاء كافور دون أن يصرح باسمه خوفًا منه ، واتقاءً لشره ، وهذا من بديع الأساليب وأرفعها وأجملها .

وفي الإخبار عن المبتدأ " نُعْمَى الناس " بلفظة " أقوال " إشارة إلى أن عطاء غير الممدوح من الناس – ومنهم كافور – مجرد وعود برّاقة وأقوال بلا أفعال .

ووردت لفظة " أقوال " هذه بصيغة الجمع مقابلة للجمع الأول – وهو الناس – بالجمع الثاني ، وهو الأقوال ، وفي جمع هذه اللفظة إشارة إلى كثرة الوعود من الناس بلا وفاء ، وهذا أبلغ في الذم ، وأقذع في الهجاء .

---

(١) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ٣ / ٨٩ / من البسيط / تحقيق : محمد عبده عزام / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الرابعة / بدون تاريخ .

(٢) معجز أحمد ٤ / ٢٠٥ ، مع المتنبي / ٣٢٥ / د / طه حسين / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثانية عشرة / بدون تاريخ .

(٣) تاريخ دمشق ٧١ / ٨٢ ،وفيات الأعيان ١ / ١٢٢ .

والفاء في قوله : " فربما جزت الإحسانَ مولَيه خريدة من عَذارَى الحيّ مِكْسال " استئنافية ، وفيها معنى التعليل ، فبعد أن أمر المتنبي نفسه وحثها على مكافأة الأمير استأنف يقول لنفسه : إن كانت النساء – وعادتهن كُفْران النعم – ربما جازت الحَيِيّة الضعيفة الحركة المِكْسال منهنّ مَنْ أحسن إليها بحسن اعترافها بالفضل ومقابلة الإحسان بالشكر فأنت أَقْدَر على شكر مَنْ أحسن إليك ، وأجدر بالثناء على مَنْ أسبغ فضله وكرمه عليك .

ولفظة " رُبّ " هنا لإفادة التقليل ، أي أن مكافأة الخريدة العذراء المِكْسال من أحسن إليها أمر قليل أو نادر الحدوث ، لكنه مع قلته أو ندرته فقد يحدث .

والتعبير بالفعل " جَزَتْ " بصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع ، وأن هذا الأمر – وإن كان قليل الحدوث أو نادرًا – إلا أنه قد حدث بالفعل ، وهذا أبلغ في حث النفس وتحريكها وتشجيعها على مجازاة ومكافأة من أحسن إليها معروفًا ، وقَدَّمَ لها يدًا .

واللام في " الإحسان " للدلالة على الجنس ؛ لأن المقصود من تعريفه هنا بيان حقيقته الذاتية القائمة في الذهن دون التعرض لأفراده أو صوره وأنواعه .

وفي إضافة " مولى " إلى الضمير العائد إلى الإحسان – وهو الهاء – تشريف وتكريم وتعظيم ؛ لأن منزلة المولى ومكانة المُعْطِي من نفس منزلة ومكانة ما يوليه ويعطيه ، ولا سيَّما إذا كان ذلك المولى أميرًا كفاتك .

وخَصَّ المتنبي من النساء " الخريدة " بالذكر لضعفها عن الحركة وفتورها وقلة تصرفها [1] ، وتنكير الخريدة هنا يحتمل أن يكون للدلالة على النوع ، أي خريدة لا غيرها من فتات النساء ، إذ إن غيرها مِمَّنْ هنّ أَقْدَر على المجازاة والمكافأة منها قد لا تكون المجازاة منهن مستغربة استغرابها من تلك الخريدة المُتَسَتِّرة العذراء المِكْسال .

(١) معجز أحمد ٤ / ٢٠٦ .

وفي وصف الخريدة بأنها " من عَذارَى الحيّ مِكْسال " تتميم ، حيث وصفها بوصفين يدلان على المبالغة والزيادة في المعنى ، فوصفها أولًا بكونها من العذارى ، ثم وصفها ثانيًا بصيغة المبالغة " مِكْسال " ؛ لأن المجازاة إن كانت قليلة أو نادرة الوقوع من الخريدة الخَبِيّة فوقوعها من الخريدة العذراء كثيرة الكسل أكثر قلة وندرة ، ولكن رغم كل هذا فقد تقع منها المجازاة لمن أحسن إليها ، وأسدى إليها معروفًا ، وقَدَّمّ لها يدًا ، وهذا أكثر تشجيعًا وحَثًّا لنفس المتنبي على مكافأة هذا الأمير على إحسانه ولو بالمدح والثناء ، فليُسْعِد النطقُ إن لم تُسْعِد الحالُ .

والواو في قوله :

وَإِنْ تكُنْ مُحْكَماتُ الشُّكْلِ تَمْنَعُني ظُهُورَ جَرْيٍ فَلِي فِيهِنّ تَصْهالُ

استئنافية ، فبعد أن حَثّ نفسه على مكافأة الأمير ، وضرب لنفسه مثلًا بالخريدة الخَبِيَّة العذراء الفاترة الضعيفة الحركة استأنف الحديث بأسلوب الشرط هذا كأنه يقول لممدوحه : " إن لم أقدر على المكاشفة بنصرتك فإني أمدحك إلى أوان ذلك ، كما أن الجواد إذا شُكِّلَ عن الحركة صَهَلَ شوقًا إليها " [١] ، أو كأنه يقول له : " إن كانت حالي الآن ضعيفة عن مكافأتك فعلًا جازيتك قولًا " [٢] .

وكلام المتنبي هنا مبني على صورة بيانية رائعة ، وهي التشبيه ، حيث شبه نفسه في حالة مجازاته ممدوحه بالقول لعدم قدرته على مجازاته بالفعل ، أو لعدم قدرته على المكاشفة بنصره على كافور – حيث كان فاتك ينطوي على بُغْض كافور ومعاداته – بالفرس الجواد المشكول الذي يصهل ؛ ليظهر ما في نفسه من الشوق إلى الحركة والتوق إلى الجري [٣] .

(١) الفَسْر ٣ / ٢٣٤ .
(٢) السابق / نفس الجزء / ٢٣٥ .
(٣) السابق / نفس الجزء والصفحة ، التبيان في شرح الديوان / ٣ / ٢٧٨ ، شرح ديوان المتنبي ٣ / ٣٩٦ .

واستخدم المتنبي أداة الشرط " إن " للدلالة على أن مكافأته لممدوحه بالقول لعجزه عن مكافأته بالفعل أو مصارحته بنصرته كما هو الحال بالنسبة للجواد المشكول العاجز عن الحركة ولكنه يصهل شوقًا إليها أمر قليل الوقوع وعزيز ونادر ، إذ الأصل أن يكافئ المتنبي الفعل بالفعل ، وأن يصارحه بنصرته ، ويكاشفه بها .

وفي قوله : محكمات الشُّكْل " دلالة واضحة على أن عجزه عن مكافأة الأمير على فعله بالفعل كان عجزًا قويًا ومحكمًا ، وليس مصطنعًا ولا مختلقًا ، كما أن الجواد إذا أُحْكِمَ شِكاله عجز تمامًا عن الحركة والجري ، ولكنه يصهل شوقًا إليهما ، وهذا أدعى لقبول العذر من المتنبي عن عجزه عن المكافأة على الفعل بالفعل ، ويعضد هذا ويؤازره التعبير بالجمع " الشُّكْل " ، حيث إن المانع ليس قيدًا واحدًا قد يحتال على التخلص منه ، ولكنه مجموعة من القيود يصعب – إن لم يكن يستحيل – التخلص منها .

وفي إسناد الفعل " تمنع " إلى الضمير العائد إلى محكمات الشُّكْل مجاز عقلي علاقته السببية ، حيث إن القيود المحكمة ليست هي فاعلة المنع على الحقيقة ، وإنما هي السبب في ذلك المنع ، وفي هذا الإسناد المجازي تأكيد على سببية هذه القيود المحكمة في مَنْع هذا الجواد من الجري ، وكذلك سببيتها في مَنْع الشاعر من مجازاة فعل ممدوحه بالفعل حتى أصبحت هذه الشُّكْل المحكمات كأنها هي الفاعل الحقيقي للمَنْع .

ولعل التعبير بالمضارع " تمنع " للدلالة على استحضار صورة المنع من الجري لهذا الجواد مُحْكَم الشِّكال أمام المتلقي ماثلة أمام عينيه ، ومشاهدة بناظريه ، وحاضرة بين يديه ، وقد يكون التعبير بالمضارع هنا للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن المنع حادث ومتجدد شيئًا بعد شيء ، وحالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن ، وهذا أدعى لقبول الاعتذار عن مكافأة الفعل بمثله .

وفي ورود المسند " تمنع " – وهو خبر " تكن " – فعلًا مشتملًا على ضمير يعود إلى المسند إليه المقدم " مُحْكَمات الشُّكْل " – وهو اسم " تكن " – تقوية للحكم وتأكيد له في نفس المتلقي ؛ لما في ذلك من تكرار الإسناد ، حيث أسند الفعل " تَمْنَع " مرة إلى الاسم الظاهر " مُحْكَمات الشُّكْل " ، ومرة أخرى إلى ضميره العائد إليه ، وهو الضمير المستتر في الفعل تقديره " هي " ، ولا يخفى أن ما فيه إسنادان آكد وأقوى مما فيـــه إسناد واحـــــد .

والفاء في قوله : " فلي فيهن تَصْهال " رابطة للجواب بالشرط ، فهي تشد جملة الجواب ، وتربطها بجملة الشرط ، حتى يصبحا كالجملة الواحدة ، وفي هذا تماسك للأسلوب ، وتلاحم لأجزائه ، وتشابك لأطرافه .

وفي أسلوب الشرط هنا نوع من التشويق والإثارة للمتلقي ، حيث إنه حينما يسمع جملة الشرط فإن نفسه تتوق وتتشوق إلى جملة الجواب ، فإذا جاءته بعد هذا التشوق والترقب وجدت النفس مهيأة لاستقبالها ، فتدخل عليها دخول المأنوس به ، وتتمكن منه فضل تمكن .

وفي مجيء المصدر " تَصْهال " على وزن " تَفْعال " دلالة على التكثير والمبالغة في مصدر الفعل الثلاثي " صَهَلَ " ، يقول إمام النحاة سيبويه تحت عنوان (باب ما تُكَثِّر فيه المصدر من فَعَلت) : " فتلحق الزوائد وتبنيه بناء آخر ، كما أنك قلت في فَعَلْتُ فَعَّلْتُ حين كثَّرْت الفعل ، وذلك قولك في الهَذْر : التَّهْذار ، وفي اللَّعِب التَّلْعاب ... ولكن لما أردت التكثير بنيت المصدر على هذا " [1] .

ومما يوضح ويؤكد استخدام المتنبي لهذا المصدر بتلك الصيغة للدلالة على التكثير والمبالغة قول ابن جني في شرحه لهذا البيت : " إن لم أقدر على المكاشفة بنصرتك على كافور فإني أمدحك إلى أوان ذلك " [2] ، أي سأكثر وأستمر في مدحك حتى يأتي الأوان الذي أستطيع فيه أن أنصرك على كافور .

---

(١) الكتاب ٤ / ٨٣ ، ٨٤ / تحقيق : عبد السلام محمد هارون / مكتبة الخانجي / القاهرة ، دار الرفاعي / الرياض / الطبعة الثانية / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

(٢) الفَسْر ٣ / ٢٣٤ .

والواو في قول المتنبي :

وَمَــا شَكَرْتُ لأَنَّ الْمَالَ فَرَّحَنِي سِيَّانِ عِنْدِيَ إِكْثارٌ وَإِقْلالُ

استئنافية ، فبعد أن ذكر المتنبي قبل ذلك أنه لابدّ أن يكافئ ممدوحه بالشكر والثناء استأنف هنا ونفى أن يكون شكره له من أجل أنه فَرِحَ بالمال ؛ لأن الغِنَى والفَقْر عنده سواء ، ولا يُفْهم من الاستئناف أن الواو الاستئنافية تخلو من معنى العطف وأن ما بعدها – وهو جملة لا محل لها من الإعراب – ليس مرتبطًا بما قبلها ؛ ولذا يقول المُرادِي عن الواو الاستئنافية " وذكر بعضهم أن هذه الواو قسم آخر غير الواو العاطفة ، والظاهر أنها الواو التي تعطف الجمل التي لا محل لها من الإعراب لمجرد الربط ، وإنما سُمِّيَتْ واو الاستئناف ؛ لئلا يُتَوَهَّم أن ما بعدها من المفردات معطوف على ما قبلها " [1] .

واستخدم الشاعر الفعل " شَكَرَ " بصيغة الماضي للدلالة على تأكيد وتحقق وقوع الشكر وحدوثه في الزمن الماضي .

وقال المتنبي " شَكَرْتُ " ولم يقل : " حَمِدْتُ " ؛ لأن الحمد ثناء على جهة التعظيم والتبجيل في أخلاق المحمود وصفاته وخصاله مقرونًا بالمحبة له سواء أكان ذلك ابتداء أم مقابل نعمة ، ولا يكون إلا باللسان ، أما الشكر فلا يكون إلا في مقابل نعمة ، ويكون باللسان وبالقلب وبالجوارح ، وبناء على ذلك فيكون الحمد أعم من الشكر ؛ لأن الحمد يكون ابتداء ، ويكون مقابل النعمة ، ويكون الشكر أعم من الحمد ، لأن الشكر يكون بالقلب وباللسان وبالجوارح ، وبناء على ذلك فبينهما عموم وخصوص [2] ، وبناء على ذلك فقد شكر المتنبي بالقول باللسان بالمدح لعجزه عن الشكر بالفعل في مقابل النعمة ، وهي العطيّة التي أزجاها الممدوح إليه ، والهدية التي قدمها له .

---

(١) الجنى الداني / ١٦٣ / تحقيق : د / فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل / دار الآفاق الجديدة / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

(٢) الفروق اللغوية / ٤٨ ، ٤٩ / لأبي هلال العسكري / تحقيق : محمد إبراهيم سليم / دار العلم والثقافة / القاهرة / بدون تاريخ ، الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم / ٢٢٠ – ٢٢٣ / د / محمد بن عبد الرحمن الشايع / مكتبة العبيكان / الرياض / الطبعة الأولى / ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .

وقال المتنبي : " فَرَّحَني " ، ولم يقل : " أَفْرَحَني " – وهما بمعنى سَرَّني – لما في " فَرَّحَني " من التضعيف الدال على المبالغة والكثرة في الفرح بهذا المال ، وفي هذا كناية عن كثرة هذا المال ، وهذا يدل على عِظَم كرم الممدوح وسخائه ، حيث ورد أنه أرسل إلى المتنبي هدية قيمتها ألف دينار ، وأتبعها بهدايا أخرى [١] .

وقدّم الشاعر الخبر " سِيَّان " على المبتدأ وما عطف عليه " إكثار وإقلال " لأهميته وتقريره في ذهن السامع ، هذا بالإضافة إلى ما في تقديمه من التشوق إلى ذكر المسند إليه ومعرفته والإفصاح عنه ، فإذا ورد المسند إليه إلى النفس بعد ذلك وهي متشوقة له ثَبَتَ لديها ، واستقر فيها ، وتَمَكَّن منها فَضْل تَمَكُّن ، ودخل عليها دخول المأنوس به .

وفي جملة " سِيّان عندي إكثار وإقلال " توشيع [٢] ، حيث جاء الخبر " سِيّان " مثنى ، وجاء المبتدأ " إكثار وإقلال " وهما عين المثنى ، وفي ذلك التوشيع إيضاح بعد إبهام ، وتفصيل بعد إجمال ، والشيء حينما يذكر مجملًا مبهمًا تتطلّع النفس إلى تفصيل هذا المجمل ، وتتشوق إلى بيان ذلك المبهم ، فإذا أتاها التفصيل والبيان وهي متشوقة ومهيأة لذلك وقع منها أحسن موقع ، وتمكن منها ، وتقرر وتأكد لديها .

وفي تقديم الظرف " عندي " على المبتدأ المؤخر " إكثار وإقلال " قصر ، حيث قصر المتنبي استواء كل من الإكثار والإقلال على نفسه ونفاه عن كل من سواه ، وفي هذا القصر دلالة على عِظَم شخصية المتنبي وترفعها عن أن يشغلها إكثار أو إقلال ، إذ هي لا تنشغل إلا بعظيم المبادئ وجميل القِيَم .

---

(١) البحث صـ ٧ .

(٢) التوشيع هو أن يُؤتَى في عَجُز الكلام بمثنّى مُفَسَّر باسمين أحدهما معطوف على الآخر . الإيضاح ١ / ٣٢٠ ، تحرير التحبير / ٣١٦ ، خزانة الأدب وغاية الأرب ١ / ٣٧٢ / لابن حجة الحموي / تحقيق : عصام شعيتو / دار ومكتبة الهلال / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٩٨٧ م .

وبين كل من " إكثار " و" إقلال " طباق أبرز عظمة شخصية المتنبي واهتمامه الأعظم بالمبدأ ، حيث إن المال قَلَّ أو كثر لا يشغله عن المبادئ والقِيَم ، هذا بالإضافة إلى ما في الطباق من توضيح المعنى وتوكيده وتقريره في ذهن المتلقي ، وكذلك ما فيه من ترابط للأسلوب حيث إن المعنى يستدعي ضده ، ويرتبط به بعلاقة التضاد ، ولا يخفى ما في الطباق كذلك من تحسين وتزيين الأسلوب ، وتوضيح وبيان للفكرة ، إذ الضد يظهر حسنه ، وبضدها تتبين الأشياء .

ثم بَيَّنَ المتنبي علة شكره لممدوحه بقوله : " لكن رأيت قبيحًا أن يجاد لنا وأننا بقضاء الحق بُخّال " ، فأخبر أن سبب شكره لممدوحه أنه رأى أنه من القُبْح بمكان أن يقدم له ممدوحه الهدايا والعطايا دون أن يكافئه على ذلك بالشكر قولًا بالمدح والثناء .

وفي بَيْتَي المتنبي :

وَمَا شَـكَرْتُ لأَنَّ الْمَـالَ فَرَّحَنِي سِيَّـانِ عِنْدِيَ إِكْثَارٌ وَإِقْلالُ

لَكِنْ رَأَيْتُ قَـبِيحاً أَنْ يُجَادَ لَنا وَأَنَّـنَا بِـقَضَاءِ الحَقّ بُـخَّالُ

قصر بطريق العطف بـ " لكن " ، حيث نفى أن يكون شكره لممدوحه من أجل فَرَحه بالمال ؛ لأن الغنى والفقر عنده سواء ، وأثبت أن علة شكره لممدوحه هي أنه رأى من القُبْح أن يُجاد له بالبر والإحسان وهو بخيل بقضاء الحق بالثناء الخالد والمدح الرائع ، والقصر هنا قصر قلب ، حيث إن السامع غالبًا – إن لم يكن دائمًا – يعتقد أن الشكر من أجل المال والفرح به ، فجاء المتنبي وقلب هذا الاعتقاد ، واستخدم من طرق القصر طريق العطف هنا ؛ لأن طريق العطف " أقوى دلالة على القصر ؛ للتصريح فيه بالإثبات والنفي " [1] ، وفي ذلك تقرير وتأكيد للفكرة التي أراد المتنبي أن ينقلها ويبلغها للمتلقي .

(١) بغية الإيضاح ٢ / ٢٢٨ / لعبد المتعال الصعيدي / مكتبة الآداب / القاهرة / الطبعة السابعة عشرة / ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

واستخدم المتنبي الفعل " رأى " العلمية بمعنى " علم " دون الفعل " علم " نفسه لإبراز المعقول المعلوم في صورة المرئي المشاهد وتجسيدًا له ، وكأن هذا الأمر قد أصبح ماثلًا مشاهدًا مرئيًا ومحسوسًا بحيث لا يقبل الشك ، ولا يتطرق إليه الريب .

وقال الشاعر : " يُجاد " ولم يقل : " يُسْخَى " ؛ " لأن السخاء هو أن يلين الإنسان عند السؤال ... ولهذا لا يقال لله – تعالى – : سَخِيّ ، والجود كثرة العطاء من غير سؤال " (١) ، ويؤازر هذا ويؤكده قوله في البيت الثاني : " واجز الأمير الذي نعماه فاجئة بغير قول " .

واستخدم الفعل " يجاد " مبنيًا للمجهول ، وحذف الفاعل – وهو الممدوح – للعلم به ، فهو أشهر من أن يخفى ، وأعلم من أن يجهل .

وعبر المتنبي بالفعل المضارع " يجاد " للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن عطاء الممدوح له كان متجددًا حينًا بعد حين ، وآنًا بعد آن ، أو أن التعبير بالمضارع هنا جاء لاستحضار صورة العطاء ، وكأنها تحدث الآن ماثلة أمام المشاهد ، وكأنه يبصرها بعينيه ، ويراها بناظريه .

واللام في قوله : " لنا " للدلالة على الاختصاص ، ولزيادة بيان المقصود بالخطاب ، أي يجاد لنا خاصة دون سوانا .

وعطفت جملة " أننا بقضاء الحق بخّال " على جملة " أن يجاد لنا " الواقعة مفعولًا أول للفعل " رأى " ، والغرض من هذا العطف هو التشريك في الحكم الإعرابي ، وهذا يقتضي التشريك في المعنى أيضًا ، أي أنه رأى الأمرين قبيحين معًا حينما يجتمعان .

ويجوز أن تكون جملة " وإننا بقضاء الحق بُخّال " – بكسر همزة إنّ – حالية ، ويكون المعنى أن المتنبي يرى أن الجود له في حالة كونه بخيلًا بقضاء الحق يعد أمرًا قبيحًا .

---

(١) الفروق اللغوية ١٧٣ ، دلالة الألفاظ / ٢٢٢ / د / إبراهيم أنيس / مكتبة الأنجلو المصرية / القاهرة / الطبعة السادسة / ١٩٨٦م .

وقدّم الشاعر الجار والمجرور " بقضاء الحق " على متعلقه " بُخّال " الذي هو خبر " إن " للمحافظة على السجع والوزن الشعري .

وعبّر عن المجازاة على المعروف والإحسان بالقضاء ؛ ليدل على أن المجازاة على المعروف والإحسان عند الأحرار والكرام بمثابة الحق الذي لابد من تقديمه والواجب الذي لابد من فعله والامتثال له ؛ ولذا فقد عدّ البخل بقضاء الحق أمرًا قبيحًا وشائنًا ؛ ولذا يقول ابن جني : " لمّا وصلتُ في القراءة إلى هذا الموضع قال لي : هذا رجل حمل إليّ ما قيمته ألف دينار في وقت واحد . وما رأيته أشكر لأحد منه لفاتك ، وكان يترحّم عليه كثيرًا " (١) .

وفي استخدام المتنبي للفظة " الحق " دلالة على أن ما يجب عليه تجاه ممدوحه الذي قدّم له الهدايا والعطايا أمر مؤكد يجب عليه قضاؤه ، ويتحتّم عليه أداؤه .

ولعل المتنبي استخدم لفظة " بُخّال " جمع باخل ، وهو جمع غريب وغير مشهور بدلًا من " بخلاء " جمع بخيل ، وهو جمع متداول ومشهور ؛ لتتناسب غرابة هذا الجمع مع غرابة الحالة التي رآها المتنبي قبيحة وهي كونه بخيلًا بقضاء الحق تجاه من أسدى إليه الأيادي ، وقدّم له المعروف .

وبين كل من " يُجاد " و " بُخّال " طباق يظهر المعنى ويبرزه ويوضحه ويؤكده ، حيث أظهر الطباق هنا صورة التضاد بين الجود من طرف الممدوح والبخل من طرف الشاعر الذي جعل نسبته إليه أمرًا قبيحًا ، والضد يظهر حسنه الضد . وبضدها تتبين الأشياء .

وفي قوله :

فكُنْتُ مَنبِتَ رَوْضِ الْحَزْنِ باكرَهُ غَيْثٌ بِغَيْرِ سِباخِ الْأَرْضِ هَطَّالُ

صورة تشبيهية رائعة ، حيث شبه المتنبي حاله مع صنيعة فاتك ، حيث إنها قد زكت عنده ، ونمت لديه وزادت ؛ لأنها وقعت موقعها ، ولأنه أهلها بحال الأرض

(١) الفَسْر ٣ / ٢٣٥ .

الطيبة التي زكت وأفادت حينما باكرها الغيث الهَطّال المِدْرار الكثير ، ولم يذهب الغيث باطلًا كما لو كان في الأرض السَّبِخة التي لا تمسك ماء ولا تنبت الكلأ ولا العشب .

وتعبير المتنبي بالفعل الماضي " كان " لا يعني أنه كان ذلك منه في الماضي فقط ، وإنما " كان " هنا استمرارية ، أي أن المتنبي كان هكذا ، وما زال كذلك ، وهذا أبلغ في المدح .

وجاء المتنبي بالتشبيه هنا محذوف الوجه والأداة ؛ لأن حذف الوجه يُوَسِّع دائرة احتماله ، ويوهم أن المشبه هو عين المشبه به ، وحذف الأداة يدل على تأكيد دعوى الاتحاد بين المشبه والمشبه به ، وكأن الكلام حقيقة ، وليس تشبيهًا ، وهذا أبلغ وآكد .

وخص الشاعر " روض الخَزْن " بالذكر لكونه أنضر ، ولبعده عن الغبار والنَّزّ [١] والغَمَق [٢] [٣] .

وخص المتنبي البكور في نزول الغيث ؛ لأن ريّ الزرع في الصباح الباكر أفضل أوقات الري من حيث امتصاص النبات للماء وقلة نسبة الأمراض ؛ لأن الريّ في الظهيرة يفقد الكثير من الماء بسبب التبخر ، والري في المساء يساعد على تكوين الأمراض الفطرية ، وهذا يوحي بأن عطيّة الممدوح للشاعر أتت في وقتها المناسب ، ووقعت موقعها لدى من يعرف حقها ويذيع شكرها ، هذا بالإضافة إلى ما توحيه لفظة " باكرَ " أيضًا من أن عطاء الممدوح لم يأت بعد سؤال وطلب ، وإنما

---

(١) النَّزّ والنِّزّ - بفتح النون وكسرها ، والكسر أجود - : ما يَتَحَلَّب من الأرض من ماء ، يقال : نَزَّ المكان يَنِزّ نزًّا ونزيزًا : صار ذا نزّ ، ونزّت الأرض : نبع منها النّزّ ، وأرض نَزّة : ذات نَزّ . لسان العرب ، المعجم الوسيط / مادة : نزز .

(٢) الغَمَق : النَّدى : يقال : غَمِقَتْ الأرض تَغْمَق غَمَقًا ، فهي غَمِقة : ركبها النَّدى وأصابها . السابق : مادة غمق .

(٣) شرح الواحدي ١ / ٧٠٥ / لأبي الحسن بن أحمد الواحدي / تحقيق : فريدخ ديتريصي / طبعة برلين / ١٢٧٧ هـ - ١٨٦١م ، التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٨٧ ، العرف الطيب ٢ / ٣٦٦ ، شرح ديوان المتنبي ٣ / ٣٩٧ .

بادر الممدوحُ الشاعرَ بهذا العطاء دون سابق سؤال كما سبق بيان ذلك في قول الشاعر :

وَاجْزِ الْأَمِيرَ الَّذِي نُـــعْمَاهُ فَاجِئَةٌ   بغَيرِ قَوْلٍ وَنُعْمَى النَّاسِ أَقْوَالُ[1]

وآثر الشاعر التعبير بلفظة " غيث " دون مطر ؛ لأن لفظة " غيث " تستخدم في مواطن الخير والرحمة دائمًا لما فيها من معنى الإغاثة ، أما لفظة " مطر " فإنها تستخدم في مواطن الشرّ والعقاب والأذى .

ونُكِّرَت هذه اللفظة " غيث " للدلالة على التعظيم " أي باكره غيث عظيم ، يؤكد ذلك وصفه بصيغة المبالغة " هطّال " ، أي كثير الهَطَلان ، وهذا يوحي بعِظَم العطية .

وبين كلٍّ من " الحَزْن " و " سِباخ " طباق أوضح المعنى وأكده ، وكسا الكلام حسنًا وجمالًا ، وزاده رونقًا وبهاء ، فالضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تتبيّن الأشياء .

واللام في كلٍّ من " الحَزْن " و " الأرض " للدلالة على الجنس والحقيقة ، أي جنس الحَزْن وجنس الأرض ، إذ ليس المقصود حَزْنًا معيّنًا ولا أرضًا معيّنة .

ولفظة " غَيْثٌ " في البيت الثامن في قول المتنبي :

غَـــيْثٌ يُبَـــيِّـــنُ لِـــلنُّظَّارِ مَوْقِعُهُ   أَنَّ الْغُيُوثَ بِـــمَا تَأْتِيهِ جُهَّالُ

تحتمل أن تكون بدلًا من لفظة " غَيْث " في البيت السابق ، وتحتمل أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوف ، ولكل واحد من الاحتمالين توجيه في المعنى .

فإذا حُمِلَتْ على أنها بدل من لفظة " غَيْث " في البيت السابق فُسِّرت على الحقيقة ، ويكون المعنى " أن الممدوح أحكم من الغيوث ؛ لأنه يضع إحسانه في موضعه ، وهي تمطر التربة الصالحة والرديئة "[2] ، وفي هذا

---

(١) البحث صـ ١٣ .
(٢) العرف الطيب ٢ / ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

البدل ضرب من زيادة البيان والتقرير والإيضاح لدى المتلقي .

وإذا حُمِلَتْ على أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هو غيث فُسِّرَتْ هنا على التشبيه ، ويكون المعنى أنت كغيث يُبَيِّن موقعه للناظرين أن الغيوث لا تحل محله ، ولا تبلغ مبلغه ؛ لأنه أتى على مكان أثَّر فيه أحسن تأثير .

وفي حذف المبتدأ هنا لون من الإيجاز والاختصار ، وضرب من إثارة المتلقي وتحريك خياله وأحاسيسه ؛ ليدرك ما حُذِفَ ، وطُوِيَ ذِكْرُه ، وسُكِتَ عنه من العبارة ، هذا بالإضافة إلى ما في الحذف مع وجود ما يدل على المحذوف ويرشد إليه من احتراز عن العبث ؛ لأن ذكره مع وجود ما يشير إليه ويقتضي حذفه يخل بالوزن الشعري ، ويؤدي إلى ثِقَل الأسلوب وترهله .

هذا بالإضافة إلى أن المقام هنا مقام مدح ، وهو من المقامات التي يكثر فيها حذف المبتدأ ، حيث يرى الإمام عبد القاهر أن المدح من المقامات التي يَطّرد ويعتاد فيها حذف المبتدأ ، حيث إن العرب " يبدؤون بذكر الرجل ، ويقدمون بعض أمره ، ثم يَدَعُون الكلام الأول ، ويستأنفون كلامًا آخر . وإذا فعلوا ذلك أَتَوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ " (١) .

والتعبير بالفعل المضارع " يُبَيِّن " يدل على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن هذا التبيين من ذلك الغيث يحدث متجددًا ومستمرًا شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن .

ويحتمل أن يكون التعبير بالمضارع هنا قد جاء لاستحضار الصورة الماضية ماثلة مشاهدة أمام المتلقي كأنه يشاهدها بعينيه ، ويراها بناظريه .

ولام الجر في قوله : " للنظّار " للدلالة على الاختصاص ، أي أن هذا التبيين للنظّار خاصة دون غيرهم ؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به ، ويستفيدون منه .

---

(١) دلائل الإعجاز / ١٤٧ / تحقيق : محمود محمد شاكر / مطبعة المدني / القاهرة ، دار المدني / جدة / الطبعة الثالثة / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م .

ولقد جاء تعريف " النظّار " باللام للدلالة على الاستغراق ، ولكنه استغراق عُرْفِيّ ؛ لأنه لا يشمل كل نظّار الدنيا لاستحالة ذلك ، وإنما يشمل جميع أفراد النظّار في هذه المحلة أو تلك البلدة .

ولفظة " موقعه " يجوز فيها الرفع والنصب [1] ، فعلى الرفع تكون فاعلًا للفعل " يُبَيِّن " ، وتكون جملة " أن الغيوث بما تأتيه جُهّال " – بفتح همزة إنّ – من أنّ واسمها وخبرها في تأويل مصدر مفعول به ، ويكون المعنى : أن هذا الغيث يُبَيِّن موقعُه للنظّار جهلَ الغيوث بما تأتيه .

وعلى النصب تكون مفعولًا به ، وتكون جملة " إن الغيوث بما تأتيه جُهّال " – بكسر همزة إنّ – ابتدائية استئنافية تعليلية لما قبلها ، ويكون المعنى : أن هذا الغيث يُبَيِّن موقعه للنظّار ؛ لأن الغيوث جهّال بما تأتيه ؛ لأنها تسقي الأرض الطيّبة والسَّبخة ، وتمطر التربة الصالحة والرديئة ، أما هو فقد أتى على مكان طيّب أثّر فيه أحسن تأثير ، وبناء على النصب تكون جملة " إن الغيوث بما تأتيه جُهّال " قد فُصِلَتْ عن جملة " يُبَيِّنُ للنُّظّار موقعَه " لشبه كمال الاتصال ؛ لأن الجملة الأولى أثارت سؤالًا تقديره : لماذا يُبَيِّنُ هذا الغيثُ موقعَه للنُّظّار ؟ وجاءت الجملة الثانية جوابًا عن هذا السؤال الذي فهم من فحوى الجملة الأولى .

وسواء كان الفاعل هو الضمير المستتر في الفعل " يُبَيِّن " العائد إلى " غَيْث " أو هو الاسم الظاهر " موقعه " المضاف إلى ضمير يعود إلى " غَيْث " فإن في لفظتي " غَيْث " و " موقع " استعارة مكنية حيث شُبِّها بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأُتِيَ بشيء من لوازمه ، وهو التبيين ، وأثبت للمشبه على سبيل الاستعارة المكنية ، وفي ذلك لون من تجسيد المشبه وبَثّ روح الحركة والحياة فيه ، هذا بالإضافة إلى ما في إثبات لازم المشبه به للمشبه من التخييل الذي كسا الأسلوب حسنًا وجمالًا ، وزاده رونقًا وبهاء .

---

(١) معجز أحمد ٤ / ٢٠٧ .

وأكدت جملة " " إن الغيوث بما تأتيه جُهّال " بـــ " إنّ " لتأكيد المعنى وتثبيته وتقريره في ذهن السامع ، وهذا أدعى إلى قبوله والاقتناع به .

واللام في " الغيوث " للدلالة على الجنس والاستغراق ، أي أن كل أفراد الغيوث جاهلة بما تأتيه ، حيث إنها تسقي السَّبِخ والطيّب جميعًا ، بخلاف الممدوح فإنه

لا يعطي إلا من هو أهل للعطاء .

والباء في قوله : " بما تأتيه جهّال " للدلالة على السببية ، أي أن هذه الغيوث جُهّال بسبب من تأتيه ، حيث إنها تمطر الأرض الطيّبة والسَّبِخة بخلاف الممدوح الذي شبهه الشاعر بالغيث فهو لا يعطي إلا من هو أهل للعطاء ؛ ولذا فالغيوث مُقَصِّرة عمّا يفعله ، وجاهلة بما يدركه .

والتعبير بـــ " ما " الموصولة للدلالة على العموم ، أي أن الغيوث جاهلة بكل ما تأتيه ، ويحتمل أن تكون مصدرية ، ويكون التقدير : إن الغيوث بإتيانها للأماكن السَّبِخة والطيّبة جُهّال .

وجاء التعبير بالفعل المضارع في قوله : " تأتيه " للدلالة على استحضار هذه الصورة الماضية العجيبة ، أمام المتلقي ، وكأنها تحدث أمامه وهو يشاهدها ويبصرها ويتأملها بما فيها من عَجَبٍ وغرابة .

وفي إثبات الإتيان والجهل للغيوث استعارة مكنية ، حيث شُبِّهَتْ هذه الغيوث بأناس جُهّال ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه ، وهو الإتيان والجهل ، وأثبت للمشبه على سبيل الاستعارة المكنية ، وفي هذه الاستعارة ضرب من بثّ روح الحياة والحركة في الغيوث ، حيث أثبت لها ما يثبت للأحياء ، وفي إثبات لازم المشبه به للمشبه ضرب من التخييل الذي يلفت الانتباه ، ويثير العواطف ، ويحرك المشاعر .

وبين قوله : " يُبَيِّن " و " جُهّال " طباق ، حيث إن التبيين يستلزم العلم ، وفي هذا الطباق توضيح للمعنى وتوكيد له ، حيث أظهر وأوضح للسامع صورة كلٍّ من الممدوح والغيوث ، هذا بالإضافة إلى ما بين الضدين من تناسب ، والضد يظهر حسنه الضد ، وبضدها تَتَبَيَّن الأشياء .

وفي هذا البيت استعارة تمثيلية ، حيث شبه حال الممدوح الذي أصاب بعطائه موقعه ، وبَيَّنَ بفعله هذا للملوك موقع العطاء ، وأنهم جُهّال بذلك الموقع بحال الغيث الذي يصيب موقعه من الأرض ، ويُبَيِّن للغيوث ذلك الموقع الذي علمه ، وجهلته هي ، ثم حذفت الصورة الدالة على المشبه ، واستعير التركيب الدالّ على المشبه به للمشبه .

المبحث الثـاني : شجاعة أبي شجاع وحكمتـه :

يقـــول المتنبي :

٩ – لا يُدرِكُ الْمَجْدَ إلاَّ سَيِّدٌ فَطِنٌ لِمَا يَشُقُّ عَـــلَى السَّاداتِ فَعَّالُ

١٠– لا وَارِثٌ جَهِلَتْ يُمْنَاهُ مَا وَهَبَتْ وَلا كَسُوبٌ بغَيرِ السَّيْفِ سَأْآلُ

١١– قَالَ الزَّمانُ لَهُ قَـــوْلاً فَأَفْهَمَهُ إنَّ الزَّمَانَ عَـــلَى الْإمْساكِ عَذّالُ (١)

١٢– تَدرِي القَنَاةُ إذا اهْـــتَزّتْ برَاحَتِهِ أَنّ الشَّقِيَّ بِهَا خَيْلٌ وَأَبْطَالُ

١٣– كَفَاتِكٍ وَدُخُولُ الْكَافِ مَنقَصَةٌ كَالشَّمْسِ قُلتُ وَما لِلشَّمْسِ أَمثَالُ

١٤– الْقَائِدِ الأُسْدَ غَذَّتْهَا بَرَاثِـــنُهُ (٢) بِمِثْلِهَا مِنْ عِـــداهُ وَهْيَ أَشْبَالُ

١٥– الْقَاتِلِ السَّيْفَ فِي جِسْمِ الْقَتِيلِ بِهِ وَلِلسُّيوفِ كَمَا لِلنَّاسِ آجَالُ

١٦– تُغِيرُ عَنهُ عَلَى الْغارَاتِ هَيْبَتُهُ وَمَالُهُ بأقاصِي الْأَرْضِ أَهْمَالُ (٣)

١٧– لَهُ مِنَ الْوَحشِ ما اخْتارَتْ أَسِنَّتُهُ عَيرٌ (٤) وَهَيْقٌ (٥) وَخَنْسَاءٌ (٦) وَذَيَّالُ (٧)

من ينظر في هذه الأبيات من البيت التاسع إلى البيت السابع عشر يجد أن المتنبي قد بَيّن فيها شجاعة الممدوح ، وقوة بأسه ، وعظمة بسالته ، وصواب

---

(١) عَذَّال : لوَّام ، يقال : عَذَله يَعْذِله ويَعْذُله – بكسر اللام وضمها – عَذْلًا وعَذْلًا ، وعَذَّله : لامه ، وهو عاذل ، والجمع عُذَّل وعُذَّال وعَذَلة ، وهي عاذلة ، والجمع عواذل . لسان العرب ، المعجم الوسيط / مادة : عذل .

(٢) البراثن : جمع بُرْثُن ، وهو مخلب السبع أو الطائر ، والبراثن من السباع والطير بمنزلة الأصابع من الإنسان . لسان العرب ، القاموس المحيط / مادة : برثن .

(٣) الأهْمال : الإبل المُسَيَّبة التي لا راعي لها ، يقال : هَمَلَتْ الإبل تَهْمُل هَمْلًا وهُمُولًا : تُركَتْ ترعى بلا راع لها . لسان العرب ، تاج العروس / مادة : همل .

(٤) العَيْر : الحِمار أيًّا كان أهليًّا أو وحشيًّا ، وقد غلب على الحمار الوحشيّ ، والجمع أعْيار وعِيار وعُيُور وعُيُورة ، والأنثى عَيْرة . لسان العرب ، القاموس المحيط / مادة : عير .

(٥) الهَيْق : ذكر النعام ، والهَيْق من الرجال : المُفْرط الطول ، وقيل : هو الطويل ، ومنه سُمِّيَ الهَيْق لطوله ، والجمع أهْياق وهُيُوق ، والأنثى هَيْقة . لسان العرب ، تاج العروس / مادة : هيق .

(٦) الخَنْساء : البقرة الوحشيّة ، ولفظة خنساء صفة لها لخَنَس أنفها ، وأصل الخَنَس في الظباء والبقر ، وهي كلها خُنْس ، وأنف البقر لا يكون إلا أخْنَس . السابق / مادة : خنس .

(٧) الذيّال : الثَّوْر الوحشيّ . تاج العروس / مادة : ذيل .

حكمته ، وكرم خصاله ، وشرف خلاله ، فذكر أن المجد لا يدركه إلا سيّد ثاقب الفطنة يفعل من الجميل ما يشق على السادات ، ولم يرث ما وهبت يمينه فيكون جاهلًا بحقيقة قدره ، ولم يكسب ماله بغير السيف حتى لا يعرف خطره ، ويهون عليه تبذيره ، ثم ذكر أن الممدوح رجل أيقظته تصاريف الزمان ، ونبهته تجاربه أن المال لا يبقى ، فوعى ذلك عن الزمان ، فأنفق ماله ابتغاء تحصيل المجد والسؤدد ، ثم ذكر من أمارات شجاعته وفروسيته أن القناة إذا هزها براحته تعلم أن الشقي بها خيل وأبطال لكثرة ما عَوَّدَها على ذلك ، ثم استطرد فأوضح أن دخول الكاف على اسم الممدوح فاتك ينقص من قدره ؛ لأن ذلك يوهم أن له شبيهًا ، وإنما هو كالشمس إذا شَبَّهْتَ بها وهي لا شبيه لها ، ثم أفاد أنه يقود إلى الحرب رجالًا كالأسود تغذوهم براثنه بأسلاب نظرائهم وأقرانهم من فرسان أعدائهم منذ أن كانوا أشبالًا إلى أن صاروا أُسْدًا ، ثم أوضح أنه لجودة ضربه وقوته يقتل المقتول والسيف الذي يقتله به بكسره فيه ، وذكر أن هيبة الممدوح تكفيه أداءه وتغير على غاراتهم حتى أصبحت إبله ترعى هَمَلًا بلا راعٍ ، فلا يتعرض لها أحد من هيبته ، ثم أشار إلى ما كان عليه الممدوح من مواصلة الغارات ، وملازمة الفلوات ، والتَّقَوُّت بلحوم الوحش ، والمعرفة بصيده ، والاقتدار على جميع صنوفه ، فله من الوحش ما اختاره وقصده بحيث لا يفوت رغبته ، ولا يسبق أسنته .

وجاء الشاعر في البيتين التاسع والعاشر بقصر بليغ وبديع ، حيث قصر إدراك المجد والوصول إليه وتحقيقه وتحصيله على السيّد الفَطِن الذي يستطيع إدراك ما يشق إدراكه وفعله على السادة العظماء والشرفاء والكرماء ، والذي لم يرث ماله الذي يهبه عن آبائه فيجهل قدره ، حيث لم يلحقه عناء بجمعه ، ولم يجمعه بالسؤال حتى لا يعرف خطره ؛ وإنما كسبه بسيفه دون غيره لما فيه من المشقة والمخاطرة بالروح .

وآثر المتنبي من طرق القصر طريق النفي والاستثناء ؛ لأنه – كما قال الدكتور / محمد أبو موسى – : " لا يأتي إلا في المعنى الذي يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد " (١) ، ويقول الإمام عبد القاهر : " وأما الخبر بالنفي والإثبات نحو : " ما هذا إلا كذا " ، و " إن هو إلا كذا " فيكون للأمر ينكره المخاطب ، ويشك فيه . فإذا قلت : ما هو إلا مصيب " ، أو " ما هو إلا مخطئ " قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلت ، وإذا رأيت شخصًا من بعيد فقلت : " ما هو إلا زيد " لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد ، وأنه إنسان آخر ، ويَجِدّ في الإنكار أن يكون زيدًا " (٢) ، ويقول الدكتور / بسيوني فيود : " فهذا الطريق – النفي والاستثناء – يستخدم عندما ينكر المخاطب ، ويجحد الحكم ، أو ما يتزل تلك المتزلة " (٣) .

ولما كان الأمر الذي يريد المتنبي أن يثبته لممدوحه من الأمور العظيمة والعجيبة ، والتي قد ينكرها المخاطب أو يشك فيها لشدة غرابتها وعِظَمها ، والتي
لا يدركها إلا السيّد الفطن الفعّال لما يشق على السادات الكرماء الفضلاء فعله ، وأراد المتنبي أن يؤكّد هذا الأمر ويقرره في نفس المتلقي أتى به في أسلوب قصر بطريق النفي والاستثناء . يقول أستاذنا الدكتور / محمد أبو موسى : " ولا تلقاك هذه الأداة إلا حيث تلقاك النبرة العالية ، والنغمة الحاسمة " (٤) .

واستخدم المتنبي من أدوات النفي " لا " دون غيرها ؛ لأنها تدل في النفي على مطلق الزمن بلا حدود ولا نهاية ما لم يقيد النفي بها بزمن معين (٥) ، وعلل

(١) دلالات التراكيب / ١٠٤ / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .
(٢) دلائل الإعجاز / ٣٣٢ .
(٣) علم المعاني ٢ / ٢٩ / مؤسسة المختار / القاهرة ، دار المعالم الثقافية / الأحساء / الطبعة الثانية / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م ، وينظر : من بلاغة النظم القرآني / ١٥٦ / د / بسيوني فيود / مؤسسة المختار / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
(٤) السابق / ١٠٥ .
(٥) أساليب النفي في القرآن / ٢٠ / د / أحمد ماهر البقري / دار المعارف / القاهرة / ١٩٨٠م .

السهيلي امتداد النفي بها بامتداد الصوت فقال : " فحرف " لا " لام بعدها ألف يمتد بها الصوت ما لم يقطعه تضييق النفس، فإذًا امتداد لفظها بامتداد معناها "(١) .

وجاء تعريف الشاعر المجد باللام للدلالة على الجنس والحقيقة ، أي لا يدرك جنس المجد وحقيقته إلا من كانت هذه شيمته وجِبِلّته ، وتلك صفته وخليقته .

وتنكير لفظة " سيّد " للدلالة على التعظيم من أمره والتفخيم من شأنه ، وهي مشتقة من السيادة الدالة على المَجْد والعظمة والفخامة والشرف ؛ إذ سيّد كل شيء أعظمه وأشرفه وأرفعه وأكرمه ، وهذه اللفظة صفة مشبهة تدل على أن السيادة ملازمة للممدوح ، ومتأصلة فيه ، ومستمرة معه ، وليست عارضة فيه ، ولا منفكة عنه .

ثم أخذ المتنبي بعد ذلك يصف السيد الذي قصر إدراك المجد عليه قصر صفة على موصوف بمجموعة من الصفات تكشف عن حقيقة الموصوف وزيادة بيانه وإيضاحه وضوحًا شديدًا كأنها تصل إلى تحديد الموصوف ، وكأن هذه الصفات " فَطِن " ، و " فَعّال لما يشُقّ على السادات " ، و " لا وارث جهلت يمناه ما وهبت " ، و " لا كسوب بغير السيف سَتّال " أصبحت علمًا على الممدوح بحيث إذا طرقت السمع صَرَفَها مباشرة إليه لا إلى غيره .

ولفظة " فَطِنٌ " تحتمل هنا أن تكون صفة مشبهة ، توحي بأن الفطانة ملازمة للممدوح ملازمة الطبع والسجيّة ، ولا تنفكّ عنه ، وتحتمل أن تكون صيغة مبالغة تدل على الكثرة والزيادة في فطانة الممدوح ، وهي في كلا الاحتمالين تحمل مدحًا عظيمًا وثناء جميلًا للممدوح .

ثم جاء المتنبي بالصفة الثانية لـــ " سيّد " ، وهي قوله : " فعّال " ، وهي صيغة مبالغة تدل على أن الممدوح كثير الفعل لما يشق على السادات والعظماء

(١) نتائج الفكر / ١٠١ / تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد مُعَوَّض / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م .

والفضلاء فِعْلُه ، ويصعب عليهم تحققه وتحمّله من أفعال المجد والسؤدد التي تعلي من شأن صاحبها ، وتخلد ذكره .

ونلحظ هنا أن المتنبي جاء بهذه الصفة الثانية " فَعّال " غير معطوفة على الصفة الأولى " فَطِن " ؛ لأن الأصل في الصفات أن تذكر بدون عطف ؛ لأن الصفة جارية مجرى الموصوف ، فكأنها تكرار لذكره ، وهي من هذا الوجه لا تعطف [١] ، وسقوط الواو هنا أشار إلى أن هاتين الصفتين " فَطِن " و " فَعّال " مجتمعتان في الممدوح ، وكأنهما صفة واحدة .

واستخدم الشاعر اسم الموصول العام " ما " في جملة " لما يَشُقّ على السادات فعّال " للدلالة على العموم والشمول لكل أفعال الشرف والمَجْد والعظمة والسيادة والرياسة .

وجاء التعبير بالمضارع " يَشُقّ " للدلالة على استحضار هذه الصورة العجيبة أمام السامع ، وكأنه يرى هذا السيّد الفَطِن الفَعّال يفعل أفعال المجد والسؤدد التي يصعب ويشق على السادات فعلها وتحملها لما فيها من بذل الغالي والنفيس والمخاطرة بالنفس والروح .

واستخدم المتنبي لفظة " السادات " جمع " سادة " وهي جمع " سيّد " المشتقة من الفعل " ساد " بمعنى عَظُمَ ومَجُدَ وشَرُفَ ، ومضارعه " يسود " ومصدره " سيادة وسُوْدَد – بغير همز – وسُؤْدَد وسُؤْدُد بفتح الدال الأولى وضمها " [٢] ، وهذا أبلغ في المدح وأعظم ؛ لأن الممدوح إذا كان فَعّالًا لما لا يستطيع أن يفعله ويتحمله السادات الفضلاء العظماء الشرفاء فهو فَعّال لما لا يستطيع أن يفعله ويتحمله غيرهم من باب أولى ؛ ولذا فقد استحق أن يكون سيّد غيره ، وأن تكون أفعاله سيّدة أفعال غيره ، ولا غرو فعادات السادات سادات العادات !!

(١) دلالات التراكيب / ٢٨٠ .
(٢) لسان العرب ، تاج العروس / مادة : سود .

وآثر المتنبي التعبير بصيغة المبالغة " فَعّال " دون اسم الفاعل " فاعل " للدلالة على المبالغة والتكثير في الفعل ، فالممدوح لم يكن يفعل ما يشق على السادات مرة أو مرة بعد مرة ، وإنما كان هذا الأمر هو دأبه وديدنه وهِجِّيْراه .

ونلحظ أن المتنبي هنا قد صاغ بيته هذا بأسلوب الكلام الجامع [١] ، حيث أتى به متضمّنًا معنى الحكمة الذائعة والمثل السائر ، وهذا من بليغ القول وبديعه لما في لفظه من الإيجاز الرائع ، ولما تضمن معناه من فائدة بليغة تجري مجرى الأمثال ، وهذا المعنى قد أشار إليه المتنبي في قوله :

وإذا كانت النفوسُ كِبارًا تَعِبَتْ في مُرادها الأَجْسامُ [٢]

وقوله أيضًا مخاطبًا نفسه :

ذَرِيني أَنَلْ ما لا يُنالُ من العُلا فَصَعْبُ العُلا في الصَّعْبِ والسَّهْلُ في السَّهْلِ

تُرِيدِيْنَ لقيان المعالي رخيصة ولا بدّ دون الشَهْد مـــن إبَرِ النَّحْلِ [٣]

وقد تجاذب هذا المعنى كثير من الشعراء الذين جاؤوا بعد المتنبي ، ومن هؤلاء صفي الدين الحِلّي في قوله :

لا يمتطي المَجْدَ مَنْ لم يركب الخَطَرا ولا يَنال العُلا مَنْ قَدَّمَ الحَذَرا [٤]

وقوله أيضًا :

مَنْ كان يعلمُ أنّ الشّهْدَ راحَتُه فلا يَخافُ للدْغِ النَّحْلِ من أَلَمِ [٥]

---

(١) الكلام الجامع : هو أن يأتي الشاعر ببيت مشتمل على حكمة أو موعظة أو غير ذلك من الحقائق التي تجري مجرى الأمثال . خزانة الأدب وغاية الأرب ١ /٢٥١ ، شرح عقود الجمان / ١٣٤ / للسيوطي / دار الفكر / بيروت / لبنان / بدون تاريخ ، أنوار الربيع ٢ / ٣١٨ / لابن معصوم المدني / تحقيق : شاكر هادي شكر / مطبعة النعمان / النجف الأشرف / الطبعة الأولى / ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م .

(٢) ديوانه / ٢٦١ / من الخفيف .

(٣) السابق / ٥١٨ / من الطويل .

(٤) ديوان صفيّ الدين الحِلّي / ٦٩ / من البسيط / دار صادر / بيروت / بدون تاريخ .

(٥) السابق / ٦٩٠ / من البسيط .

وأمير الشعراء أحمد شوقي في قوله :

وما نَيْلُ المُطالبِ بالتمنِّي ولـــكنْ تُـــؤْخَذُ الدُّنْيا غِـــلابا [١]

وأبو القاسم الشابي في قوله :

ومَنْ لا يُحِبُّ صُعُودَ الجِبالِ يَعِشْ أَبَدَ الدَّهْرِ بَيْنَ الحُفَرْ [٢]

و " لا " في قول المتنبي : " لا وارث جهلت يمناه ما وهبت " بمعنى غير ، أي غير وارث ، وقيل : عاطفة ، وهي التي " تُشْرِكُ في الإعراب دون المعني " [٣] ، وتكون لفظة " وارث " نعتًا آخر لـــ " سيّد " ، أي لا يدرك المجد إلا سيّد فطن لا وارث جاهل بحقيقة قدر ما يهب من الموروث، حيث لم يلحقه عناء بجمعه [٤] .

وفي نفي الإرث عن الممدوح هنا كناية عن تأصُّل الكرم في نسبه ؛ لأن عدم إرثه مالًا يوحي بأن " أباه كان جوادًا ، فلم يخلف مالًا " [٣] ، أي أنه لم يرث عن أبيه مالًا ، وإنما ورث ما هو أفضل من المال وهو خلق الجود والكرم والعطاء ، وهذا أبلغ في المدح والثناء ، وأفضل في الحمد والإطراء .

وجملة " جهلت يمناه ما وهبت " تحتمل أن تكون كناية عن حكمة الممدوح ووعيه بسياسة الإنفاق ، حيث إنه لم يرث عن أبيه مالًا فيجهل قدر ما ينفقه منه ؛ لأنه أتاه بدون تعب ولا مشقة ، وتحتمل أن تكون كناية عن كثرة كرم الممدوح وإنفاقه وبذله ، حيث إنه جهل مقدار ما أنفقه لكثرته ، يقول الواحدي : " ويمناه جهلت ما وهبت لكثرته " [٤] ، وفي هذا ثراء للأثر الأدبي بسبب تعدد المعاني والدلالات التي وضعها الشاعر في شعره ، وقصد إليها .

---

(١) الشوقيات ١ / ٧١ / من الوافر / دار العودة / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٩٨٨م .
(٢) ديوان أبي القاسم الشابي / ٧٠ / من المتقارب / شرح أحمد حسن بَسَج / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الرابعة / ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م .
(٣) الجنى الداني / ٢٩٤ .
(٤) معجز أحمد ٤ / ٢٠٨ .
(٥) شرح الواحدي ٢ / ٧٠٦ ، التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٧٩ .
(٦) شرح الواحدي ٢ / ٧٠٦ .

وفي قوله : " جهلت يمناه " استعاره مكنية ، حيث شبهت يمين الممدوح بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو الجهل ، وأثبت للمشبه على سبيل الاستعارة المكنية ، وفي هذه الاستعارة إبراز للجهل – وهو أمر مستقبح – في صورة المستحسن ، حيث إن جهل الواهب لمقدار ما وهب لكثرته أمر يشير إلى عِظَم كرمه ، وهذا مما يحمد له ، ويعد مدحًا ، وليس ذمًّا ، وفي إثبات الجهل لليمين ضرب من التخييل يضفي على الأسلوب لونًا من الجمال ، ونوعًا من المبالغة .

وخص الشاعر اليمين بالذكر ؛ لأن السنة المعهودة في الإعطاء أن يكون باليمين ، هذا بالإضافة إلى ما يوحي به التعبير باليمين – وفيها تكمن القوة أكثر من الشمال – من كثرة الإعطاء والإنفاق ، وطِيْب ما يُوْهَب ، وحُسْن ما يُبْذَل .

والتعبير بالاسم الموصول العام " ما " للدلالة على عموم ما أنفق الممدوح وشموله ، إي أن يمينه لا تتذكر أي شيء أنفقته لكثرة ما أُنْفِقَ وتنوّعه ، فهو أعظم من أن يُعْلَم ، وأكثر من أن يُعَدّ فضلًا عن أن يُحْصَى .

وقال الشاعر : " وهبت " ولم يقل : " أعطت " ؛ لأن العطاء قد يكون بمقابل وعِوَض ، بخلاف الهبة فهي تكون بلا مقابل ولا عِوَض .

والواو في قوله : " ولا كسوب بغير السيف سئّال " عاطفة ، و " لا " زائدة لتوكيد النفي ، و " كسوب " و " سئّال " نعتان آخران لـــ " سيّد " ، أي أن الممدوح ليس كسوبًا ولا سئّالًا إلا بالسيف ، ولم يكن طالبًا حاجته إلا به ؛ لما فيه من المشقة والمخاطرة بالروح .

وفي التعبير بالسيف مجاز مرسل بعلاقة الآلية ، حيث أراد القوة والقهر والمغالبة ، وإنما عبّر بالسيف على اعتبار أنه الآلة المستخدمة في ذلك ، وفي هذا إبراز لقيمة السيف في كسب الحقوق والذّوْد عنها .

وفي كون كسب الممدوح بالسيف كناية عن معرفته لقيمة ما يبذله من فضله ، حيث إنه أعطى المال بعد معاناة في جمعه ، وجاد به بعد ما تكلّفه من المغالبة على كسبه ، يقول ابن جني " أكرم الناس من تَعِبَ في جمع الأموال بالسيف ثم يهبها بَعْدُ " (١) .

وعبّر الشاعر بصيغتي المبالغة " كسوب " و " سئّال " للدلالة على المبالغة والإكثار من الممدوح في الكسب والسؤال بالسيف ، فهو رجل عصاميّ يعرف من أين تؤكل الكتف .

وجملة " قال " الزمان له قولًا " نعت آخر لـــ " سيّد " ، وجملة " إن الزمان على الإمساك عَذّال " استئنافية (٢) ، أي أنه من صفات هذا السيد أيضًا أن الزمان قال له بلسان حاله : إن المال لا يبقي على من يمسكه ويبخل به ، وأَمَرَه بأن يهب كيما يحقق المجد ، ويكسب الحمدة ، ويورث الذكر ، ففهم الممدوح ذلك عن الزمان ، وفَرَّقَ ماله في سبيل المجد والسؤدد وحسن الذكر .

وفي قوله : قال الزمان " استعارة مكنية ، حيث شبه الزمان بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو القول ، وأثبت للمشبه ، وفي هذه الاستعارة تصوير للزمان بصورة المحسوس المشاهد ، وتجسيم وتشخيص له ، وبثّ لروح الحياة فيه ، حيث جعلته الاستعارة حيًّا ناطقًا مفصحًا ، وفي إثبات القول له استعارة تخييلية تحمل ضربًا من المبالغة ، وتلفت الانتباه ، وتثير العواطف ، وتحرك المشاعر ، وتكسو الأسلوب حسنًا وجمالًا ، وتخلع عليه رونقًا وبهاء .

والاستعارة هنا تحتمل أيضًا أن تكون تصريحية ، حيث شبه الشاعر تصاريف الزمان وأحداثه بالقول بجامع التأثر بكل منهما ، ثم حذف المشبه ، وصرح بلفظ المشبه به وهو القول ، واشتق من القول الفعل الماضي " قال " على سبيل

(١) التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٧٩ ، شرح ديوان المتنبي ٣ / ٣٩٨ .
(٢) العَرْف الطيّب ٢ / ٣٦٧ ، شرح ديوان المتنبي ٣ / ٣٩٨ .

الاستعارة التصريحية التبعية ، وفي هذه الاستعارة ضرب من التصوير والمبالغة ، حيث صورت تصاريف الزمان وأحداثه بالقول ، وجعلتها مفصحة مبينة .

واللام في " الزمان " للدلالة على الجنس والحقيقة ، حيث إن الشاعر لم يقصد زمانًا بعينه ، وإنما يقصد مطلق الزمان .

واللام في قوله : " له " للدلالة على التبليغ [١] ، أي تبليغ القول من الزمان للممدوح الموصوف بهذه الصفات ، والمنعوت بتلك النعوت ، وتحتمل أن تكون للاختصاص ، أي أن الزمان قال هذا القول للممدوح خاصة دون سواه .

وأكد الشاعر الفعل " قال " بالمفعول المطلق " قولًا " للدلالة على توكيد معنى الفعل ، ودفع احتمال المجاز ، ولإزالة الشك ، وكأن القول قد صدر من الزمان على وجه الحقيقة ، وحتى لا يطرق إلى ذهن البعض أن " قال " هنا بمعنى دلَّ أو أَلْهَمَ .

والفاء في قوله : " فأفهمه " عاطفة ، والجملة الداخلة عليها معطوفة على جملة " قال الزمان " ، والعطف بهذه الفاء يشير إلى ترتيب الإفهام وتعقيبه على قول الزمان له مباشرة بدون مهلة ولا فاصل بينهما ، حيث إن الفاء تشد رؤوس الجمل بعضها ببعض ، وتجعل الكلام مرتبًا بعضه على بعض ، وتصل رأس الحدث الثاني بعقب سابقه ، يقول الشيخ محمود شاكر : " فالفاء تحرك الزمن في الفعل الماضي ، وتمده ، وتمطله حتى تبلغ به أول الزمن في الفعل الذي يليه " [٢] .

وفي هذا إيحاء بقوة ذكاء الممدوح ، وسرعة انتباهه ، وحسن استعداده الفطري للفهم ، حيث إنه فهم ووعى عن الزمان فتنبه وتيقظ مباشرة بدون فاصل أو تردد ، فوهب ماله فيما يكسب المجد ، ويورث حسن الذكر ؛ لأنه فهم أن الزمان لا

---

(١) لام التبليغ : هي اللام الجارة لاسم السامع لقول أو ما في معناه ، نحو : قلت له ، وأذِنْت له ، وفَسَّرْت له . الجنى الداني / ٩٩ ، مغني اللبيب ١ / ٢٣١ / لابن هشام / تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الطلائع / القاهرة / ٢٠٠٥ م .

(٢) مجلة المجلة / عدد نوفمبر / ١٩٦٩م ، دلالات التراكيب / ٣٤٤ .

يمتع البخيل بما كسب ، ولا يفقد الجواد خَلَفًا لما وهب ، هذا بالإضافة إلى ما أفادته الفاء من الدلالة على السببية والتعليل ، حيث جعلت الإفهام مسببًا عن القول وناتجًا عنه .

وفي قوله : " أفهمه " استعارة مكنية ، حيث شبه الزمان بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو الإفهام ، وأثبت للمشبه ، وفي هذا تصوير للزمان بصورة المحسوس العاقل ، وفي إثبات لازم المشبه به للمشبه استعارة تخييلية تخلع على الأسلوب ضربًا من المبالغة ، وتكسوه لونًا من الحسن والرونق .

وجملة " إن الزمان على الإمساك عذّال " استئنافية ، ويؤيد هذا الاستئناف ويقويه التعبير بالاسم الظاهر " الزمان " ، وكذلك عدم اشتمالها على ضمير يربطها بالممدوح ، حيث إن الجملة الاستئنافية تؤسس معنى عامًا وقاعدة إنسانية عامة تنطبق على كل إنسان ، وتصلح لكل زمان ومكان ، وتجري بين الناس مجرى المثل السائر والحكمة الذائعة .

وأكدت هذه الجملة بـــ " إنَّ " واسمية الجملة لتقرير معناها وتثبيته وزيادة تمكينه وترسيخه في ذهن المتلقي ؛ لأن معناها من المعاني الجليلة التي تحتاج إلى زيادة تمكين وتقرير ؛ ليقلع الناس عن البخل الذي يجلب اللوم والذم ، ويُفَوِّت على صاحبه كسب والحمد والثناء باستبقاء ما ليس بباق ، ويقبلوا على الإنفاق الذي يكسب المحمدة وحسن الذكر ، ويجلب المَنْقَبة والمجد والسؤدد .

وفي قوله : " عذّال " استعارة مكنية ، حيث شبه الزمان بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو العَذْل ، وأثبت للمشبه ، وفي إثبات لازم المشبه به – وهو العَذْل – للمشبه استعارة تخييلية ، وفي هذه الاستعارة إبراز للزمان بصورة الواعظ المُذَكِّر المُحَذِّر المُنْذِر الذي يعذل البخلاء ويلومهم على بخلهم ؛ لكي يبتعدوا عن البخل ، ويقبلوا على الجود ، ويألفوه لحسن عاقبته ، وعظيم مصائره .

وعبّر الشاعر بصيغة المبالغة " عذّال " للدلالة على أن الزمان كثير اللوم دون فتور للبخلاء على إمساكهم المال لعلهم يعتبروا ، ويفهموا عن الزمان الدروس المستفادة من تصاريفه ، يقول الخطيب : " من رأى الممسكين وموقم عن الأموال ، وتخليتها للأعداء فقد أراه الزمان فيهم العِبَر " [١] .

وقول المتنبي :

تَدرِي القَـــنَاةُ إذا اهْـــتَزّتْ بِرَاحَتِهِ   أَنّ الشَّقِــــيَّ بِـــهَا خَيْلٌ وَأَبْطَالُ

وصف آخر لـــ " سيّد " [٢] ، أي أنه من صفات هذا السيد أيضًا أن القناة إذا تحركت في يده علمت أنه سيشقى بها الخيل والأبطال .

وعبر الشاعر بالفعل المضارع " تدري " للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن دراية القناة – إذا اهتزت بيد الممدوح – أنه سيقتل بها الخيل والأبطال أمر حادث ومتجدد باستمرار مرة بعد مرة ، وحالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن ، وحينًا بعد حين .

وفي قوله : " تدري القناة " استعارة مكنية ، حيث شبهت القناة بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو الدراية ، وأثبت للمشبه على سبيل الاستعارة المكنية ، وفي هذه الاستعارة بثّ لروح العقل والعلم والدراية في القناة ، وفي إثبات الدراية للقناة لون من المبالغة ، وضرب من التخييل يكسو الكلام حسنًا وبهاء ، ويخلع عليه رونقًا وجمالًا .

وتعريف " القناة " باللام للدلالة على الجنس ، أي أن أي قناة يمسكها الممدوح تهتزّ براحته ، وتعلم أن بها أشقياء هم خيل وأبطال لكثرة ما قد عوّدها ذلك ، ويحتمل أن يكون التعريف باللام هنا للدلالة على العهد الذهني ، أي القناة

(١) التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٧٩ .
(٢) العَرْف الطيب ٢ / ٣٦٧ ، شرح ديوان المتنبي ٣ / ٣٩٨ .

الخاصة بالممدوح ، والتي هي معهودة في الذهن لدى كلٍّ من الشاعر والممدوح بحيث ينصرف الذهن إليها إذا ذكرت .

وعبّر الشاعر بأداة الشرط " إذا " للدلالة على أن الأمر الداخلة عليه محقق الوقوع ، ومجزوم بحصوله ، ومقطوع به مستقبلًا ، وغير مشكوك فيه ؛ ولذا فقد جاء بعدها الفعل الماضي " اهتزّت " لدلالته على تحقق الوقوع والحصول ، ولكونه أقرب إلى القطع بوقوع الشرط ، والفعل بعدها وإن كان ماضيًا في اللفظ فهو مستقبل في المعنى ؛ لأن تعليق حصول الجزاء على حصول الشرط لا يكون إلا في الاستقبال ، وأداة الشرط تنقل الماضي إلى معنى الاستقبال [1] .

وفي إسناد الاهتزاز إلى القناة دلالة على شدة بطش الممدوح وقوته ورهبته ، وكأن القناة حينما يمسكها الممدوح بيده تهتزّ وَجَلًا وفَرَقًا ، وترتعد رهبة وفزعًا ، إذًا فما بالنا بحال من يستخدمها فيهم من خيل جياد وأبطال مغاوير ؟ !

والباء في قوله : " براحته " بمعنى " في " ، وكأن هذه القناة لا تهتزّ إلا إذا وُضِعَتْ في راحة الممدوح ، وإضافة " راحة " إلى الضمير العائد إلى الممدوح للتشريف والتعظيم ، فهي راحة عظيمة شريفة .

وتعريف " الشقيّ " باللام للدلالة على الجنس والحقيقة ، إذ ليس المقصود فردًا بعينه من الأشقياء ، وإنما المقصود أي فرد من الأشقياء من الخيل والأبطال نالته هذه القناة كائنًا من كان .

والتعبير بهذه اللفظة " الشقيّ " يوحي بأن الخيل والأبطال التي يقتلها الممدوح بقناته لا تموت إلا بعد أن يذيقها ألوانًا من الألم ، وصنوفًا من العذاب .

(١) بحوث المطابقة لمقتضى الحال / ٢٢٣ ، ٢٢٤ / د / على البدري / المكتبة الحسينية / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م .

وتنكير كلٍّ من " خيل " و " أبطال " للدلالة على التعظيم والتكثير ، أي أن الشقي بقناة الممدوح خيل عِتاق عظيمة وكثيرة ، وأبطال عظماء وكثيرون ، وهذا أَدَلّ على عِظَم شجاعته ، وفخامة بسالته .

وذكر ابن جني أن الكاف في قول المتنبي :

كَفَاتِكٍ وَدُخُولُ الْكَافِ مَنقَصَةٌ كَالشَّمْسِ قُلتُ وَما لِلشَّمْسِ أَمثَالُ

زائدة ، وبناء عليه تكون لفظة " فاتك " خبرًا لمبتدأ محذوف ، يقول : " والكاف هنا زائدة ، وإنما معناه وتقديره : فاتكٌ ، أي : هذا الممدوح فاتك " (١) .

وجاء الواحدي وتَعَقَّبَ ابن جني ، وأنكر عليه زيادة الكاف هنا ، فقال : " ولم يعرف ابن جني وجه دخول الكاف في " كفاتك " فقال : الكاف ها هنا زائدة ، وإنما معناه وتقديره : فاتك ، أي : هذا الممدوح فاتك ، وجميع البيت مبني على هذه الكاف ، فكيف يمكن أن يقال : إنها زائدة ؟ ألا ترى أنه قال : ودخول الكاف منقصة ، أي أنها توهم أن له شبيهًا ، وليس كذلك ؛ لأنه يقول : كالشمس ولا مثل للشمس " (٢) .

والمتأمل في هذه الكاف يجد أنها تفيد التشبيه ، حيث شبه المتنبي السيّد الذي ذكر صفاته من فطانة وعَظَمة وفروسية وغير ذلك بفاتك في كرم خصاله ، وشرف خلاله ، وعظيم صفاته ، ثم استدرك المتنبي على نفسه فقال : " ودخول الكاف منقصة " ؛ لكيلا يفهم البعض من هذا التشبيه وجود شبيه لممدوحه ؛ لأن التشبيه – وهو قائم ومبني على إلحاق أمر بآخر – منقص لما أكمل الله – ﷻ – به هذا الممدوح من مجد وعظمة ، ولما أفرده به من شرف منزلة ، وجلالة قدر ؛ ولذا فقد اعتذر الشاعر ، وذكر أنه قال : " كفاتك " مع علمه أن ممدوحه لا شبيه له ، وإنما ذكر ذلك من باب تشبيه الأشياء بالشمس توسّعاً ومجازًا في شرف

(١) الفَسْر ٣ / ٢٣٧ .
(٢) شرح الواحدي ٧٠٦ .

عنصرها ، وعلو موضعها ، وتوضيحًا للأشياء ، وتقريبًا للمعنى في الأفهام دون أن يستوجب ذلك نقصًا فيها كذلك ، حيث إنها ليس لها أشباه ولا أمثال تقاربها وتدانيها فضلًا عن أن تعادلها وتقاربها .

وذكر بعض الشراح أن هذه الكاف هي الكاف التي يقال لها عند أهل العربية كاف الاستقصاء ، وهي تفيد التشبيه في الظاهر توسّعًا ومجازًا علمًا بأن المشبه به لا يوجد له شبه ولا مثل ، وضربوا لذلك مثالًا بقولهم : من الحروف ما لا يقبل الحركة كالألف ، ومعلوم أن الألف هي الحرف الوحيد الذي لا يقبل الحركة ، وإنما شبه به توسّعًا ، وتوضيحًا للقاعدة ، وتقريبًا للمعنى في ذهن السامع [١] .

وتعريف " الكاف " باللام في قوله : " ودخول الكاف منقصة " للدلالة على العهد الذكري ، حيث سبق ذكرها في قوله : " كفاتك " .

وتعريف لفظة " الشمس " الأولى باللام للدلالة على العهد الذهني ، أي الشمس المعهودة في ذهن كلٍّ من الشاعر والممدوح ، حيث لم يسبق لها ذكر ، أما تعريف لفظة " الشمس " الثانية باللام فللدلالة على العهد الذكري حيث سبق ذكرها قبل ذلك .

وتنكير لفظة " أمثال " للدلالة على العموم والشمول ، حيث إنها في سياق نفي ، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم والشمول .

و لفظة " القائدِ " – بالجر [٢] – في قول المتنبي :

الْقائِدِ الأُسْدَ غَـــذَّتْهَا بَرَاثِـــنُهُ بِمِـــثْلِهَا مِنْ عِداهُ وَهْيَ أشْبَالُ

نعت لـــ " فاتكٍ " ، والغرض من هذا النعت هو مدح المنعوت ، والثناء عليه ، والتعريف به ، والكشف عن حقيقته ، وتوضيحه توضيحًا كاملًا ، وتحديده تحديدًا تامًا .

---

(١) العرف الطيب ٢ / ٣٦٧ ، شرح ديوان المتنبي ٣ / ٣٩٨ .
(٢) كما ورد في كلٍّ من شرح الواحدي / ٧٠٦ ، العرف الطيب ٢ / ٣٦٨ ، شرح ديوان المتنبي ٣ / ٣٩٩ .

ويجوز في هذه اللفظة " القائد " الرفع [١] ، على أنه خبر لمبتدأ محذوف ويكون التقدير : هو القائد ، وذلك بقطع النعت عن المنعوت ، والغرض من قطع النعت عن المنعوت هنا هو الإمعان والمبالغة في المدح ، وجَلْب انتباه السامع ، والتلوين في الأسلوب ، والتفنن في القول لتنشيط ذهن المخاطب ، ولا يخفى ما في حذف المبتدأ من الإيجاز والاختصار للأسلوب .

واللام في " القائد " للدلالة على العهد الحضوري أو العلمي ، حيث لم يتقدم للمعرف بـــ " أل " هنا ذكر ، ولكن السامع يدرك المقصود من نطق الشاعر ، وكذلك اللام أيضًا في لفظة " الأُسْد " ، حيث لم يسبق لها ذكر لا صراحة ولا كناية ، ولكن المتلقي يدرك المقصود من نطق الشاعر ، ويحضره في ذهنه إحضارًا تامًا ، ويحتمل أن يكون التعريف لـــ" الأُسْد " باللام هنا للدلالة على العهد الذهني ، أي الأُسْد المعهودة في الذهن لدى كلٍّ من الشاعر والممدوح .

وفي لفظة " الأُسْد " هنا استعارة تصريحية ، حيث شبهت الجنود الذين يقودهم الممدوح بالأُسْد ، ثم حذف المشبه ، وصرّح بلفظ المشبه به ، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وفي هذه الاستعارة لون من المبالغة والتفخيم والتوكيد للمعنى ؛ وذلك لما فيها من دعوى الاتحاد والامتزاج بين المشبه والمشبه به ، هذا بالإضافة إلى ما فيها من تحريك المشاعر ، وإثارة العواطف والوجدان ، وتنشيط العقول والأذهان ، وبراعة التصوير ، ولا يخفى ما في هذه الاستعارة من إبراز شجاعة جنود الممدوح وبسالتهم .

وفي قول المتنبي : " غَذَّتْها " دلالة على أن هذه الأُسْد تَشَبَّعَتْ من لحوم أعداء الممدوح ، وجرى ذلك في دمائهم وعروقهم .

---

(١) كما ورد في كلٍّ من الفسر ٣ / ٢٣٧ ، معجز أحمد ٤ / ٢٠٩ ، المُوْضِح في شرح شعر أبي الطيب المتنبي ٤ / ٤١٣ / لأبي زكريا يحيى بن علي التبريزي / تحقيق : / خلف رشيد نعمان / دار الشئون الثقافية العامة / بغداد / الطبعة الأولى / ٢٠٠٤م ، التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٨٠ .

وفي لفظة " براثن " استعارة تصريحية أيضًا ، حيث شبهت سيوف الممدوح بالبراثن ، ثم حذف المشبه ، وصرّح بلفظ المشبه به ؛ ليقوم مقامه ، ويحل محله بادعاء أن المشبه هو عين المشبه به مبالغة ، وفي هذا إبراز لمدى قوة فروسية الممدوح وبطشه بأعدائه ، ووجه استعارة البراثن للسيوف أن البراثن تصنع للطيور والسباع من حماية وجلب رزق وغير ذلك مثل ما تصنع السيوف للممدوح ، يقول التبريزي : " يريد بـــالبراثن السيوف ؛ لأن البراثن كالسلاح " (١) .

وفي إضافة " براثن " إلى ضمير الهاء العائد إلى " القائد " – وهو الممدوح – ضرب من التفخيم والتعظيم لهذه البراثن من ذلك الأسد الجسور الهصور .

وفي قوله : " وهي أشبال " تشبيه بليغ ، حيث شبه الشاعر جنود الممدوح وغلمانه الذين غَذّاهم ببراثنه من لحوم أعدائه بالأشبال ، وفي هذا إبراز لمدى شجاعة هؤلاء الجنود الشجعان وبسالة أولئك الغلمان الفرسان ، وفي حذف أداة التشبيه هنا ضرب من تأكيد التشبيه بادعاء اتحاد الطرفين ، وأن المشبه هو عين المشبه به من غير واسطة أداة بينهما ، وفي حذف الوجه إشعار بدعوى اتحاد الطرفين ؛ حيث إن حذفه وعدم تعيينه يؤذنان ويشعران بأن المشبه يشبه المشبه به في كل صفاته ، هذا بالإضافة إلى ما في حذف كلٍّ من أداة التشبيه ووجه الشبه من الإيجاز والاختصار للأسلوب .

وفي قوله عن غلمان الممدوح وجنوده : " غذّاها براثنه بمثلها من عِداه وهي أشبال " كناية عن أُنس غلمانه وجنوده للحروب ، وإتقانهم للقتال ، وتعويدهم على ذلك منذ أن كانوا أشبالًا فاقتحم بهم العقبات والمهالك ، وخاض بهم الأهوال والمعارك .

ولفظة " القاتل " في قول المتنبي :

---

(١) المُوْضِح في شرح شعر أبي الطيب المتنبي ٤ / ٤١٣ .

الْقاتِلِ السَّيْفَ فِي جِسْمِ الْقَتِيلِ بِهِ وَلِلسُّيوفِ كَمَا لِلنَّاسِ آجَالُ

نعت ثان لـــ " فاتك " والغرض من ذلك هو زيادة المدح والثناء على الممدوح ، وكذلك زيادة التعريف به ، وتحديده تحديدًا كاملًا ، وتعيينه تعيينًا واضحًا .

ولم يعطف المتنبي هذه الصفة " القاتل " على الصفة السابقة " القائد " للدلالة على كمال اجتماع هاتين الصفتين في الممدوح ، وأن اجتماعهما فيه قد بلغ الغاية والكمال ، وكأنهما صفة واحدة .

وفي هذه اللفظة " القاتل " استعارة تصريحية تبعية ، حيث شبه كسر الممدوح السيف في جسم من يقتله به بالقتل ، ثم حذف المشبه ، وصرّح بلفظ المشبه به ، واشتق منه " القاتل " وفي ذلك ضرب من المبالغة في القتل ، وبراعة في التصوير ، وإثارة للمشاعر ، وتحريك للوجدان ، هذا بالإضافة إلى ما تخلعه الاستعارة على الأسلوب من التخييل ، وما تكسوه به من رونق وحسن وبهاء .

واللام في لفظة " السيف " للدلالة على العهد الذهني ، أي السيف المعهود في ذهن كلٍّ من الشاعر والممدوح ، وتحتمل أن تكون للدلالة على الجنس ، أي جنس السيف بدون النظر إلى أفراده .

والتعبير بحرف الجر " في " الدال على الظرفية في قول الشاعر : " في جسم القتيل به " يوحي بجودة الضرب وشدته ، وضراوة القتل وقوته وقسوته التي يمارسها الممدوح تجاه أعدائه ، فهو في غاية الجرأة ، وضربته في غاية الشدة والقوة ، حيث إنه لم يكتف بقتل من يقتله فقط ، بل يقتله ويكسر السيف الذي يقتله به فيه لشدة ضربته وقوتها شجاعة ونكالًا ونكاية .

وقال المتنبي : " جسم " ولم يقل : " جسد " لأن الجسم يطلق على البدن الذي فيه حياة وروح وحركة ، والجسد يطلق على التمثال الجامد ، أو بدن الإنسان بعد وفاته وخروج روحه ، ولا يخفى أن القتل لا يكون إلا لمن فيه الحياة والروح والحركة .

وبين كلٍّ من " القاتل " و " القتيل " – بمعنى المقتول – طباق يبرز المعنى ويوضحه ويؤكده ، ويبين مدى شجاعة الممدوح ، ويوضح موقفه من أعدائه ، وكيف كان مصيرهم على يديه ، فأَبْرَزَ الطباقُ الممدوحَ هنا فارسًا ، وأَبْرَزَ عدوه مقتولًا مخذولًا ، ولا يخفى أن الجمع بين الأمور المتضادة يكسو الكلام حسنًا وجمالًا ، ويزيده رونقًا وبهاء ، إذ الضد يظهر حسنه الضد، وبضدها تتبين الأشياء .

والباء الداخلة على الضمير العائد إلى السيف في قوله : " به " للدلالة على السببية والاستعانة ؛ لأن السيف هو الآلة التي استخدمها الممدوح هنا في قتل القتيل .

ومعنى جملة " القاتل السيف في جسم القتيل " قد ذكره المتنبي في مدحه لبدر بن عمار في قوله :

قَتَلْتَ نُفُوسَ العِدا بالحَدِيـــــــ ـــــــدِ حتى قَتَلْتَ بهنَّ الحَدِيدا [(١)]

وجملة " وللسيوف كما للناس آجال " ابتدائية استئنافية ، والواو الداخلة عليها واو الاستئناف ، ولا يفهم من كونها للاستئناف أن الكلام التالي لها منقطع العلاقة ومبتور الصلة عما قبله ؛ لأن واو الاستئناف لا تخلو من الدلالة على العطف ، ولكنها " تعطف الجمل التي لا محل لها من الإعراب لمجرد الربط " [(٢)] ، وتعطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر ، وتحدد مقاطع المعنى [(٣)] .

وفي هذه الجملة الاستئنافية تشبيه ، حيث شبه الشاعر السيوف بالناس في كون كلٍّ منهما يدركه الفناء ، وله آجال محددة لا تستقدم عليها ولا تستأخر .

واللام في كلٍّ من " السيوف " و " الناس " للدلالة على الجنس والحقيقة ، أي أن لكلٍّ جنس السيوف وجنس الرجال آجالًا لا تتجاوزها ولا تتعداها .

---

(١) ديوانه / ١٣٤ / من المتقارب .
(٢) الجنى الداني / ١٦٣ .
(٣) دلالات التراكيب / ٣٣٨ .

وفي هذه الجملة أيضًا إيجاز بالحذف ، حيث حذف منها مبتدأ الخبر " للناس " لدلالة السياق عليه ن والتقدير : للسيوف آجال كما للناس آجال ، وفي هذا الحذف إيجاز واختصار للأسلوب مما يثقل كاهله ، ويؤدي به إلى الترهل .

وفيها كذلك اقتباس ، حيث اقتبسها المتنبي من قول النبي – ﷺ – فيما رُوِيَ عن كعب بن عُجْرة – ﷺ – : " **لا تَضْرِبُوا إِماءَكُمْ على كَسْرِ إِنائِكُمْ فإِنَّ لها أَجَلًا كآجالِ النّاسِ** " (١) .

وعبر المتنبي بالفعل المضارع " تُغِيْر " في قوله :

تُـــغِـــيرُ عَنهُ عَـــلَى الْغارَاتِ هَيْبَتُهُ وَمَالُهُ بأقَاصِي الْأَرْضِ أَهْمَالُ

للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن إغارة هيبة الممدوح على غارات عدوه لتبقى إبله ترعى سُدًى وهَمَلًا وبلا راع ، ودون أن يمسها عدو بسوء فضلًا عن أن يصيبها أمر يتجدد ويحدث باستمرار شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، وحينًا بعد حين ، وآنًا بعد آن ، ويحتمل أن يكون التعبير بالمضارع هنا قد جاء لاستحضار هذه الصورة العجيبة البديعة ، صورة إغارة هيبة الممدوح على غارات عدوه أمام المتلقي كأنه يراها تحدث أمام ناظريه ، ويشاهدها تقع أمام عينيه .

و " عن " في قوله : " تغير عنه " للدلالة على البَدَل ، أي : تغير بَدَله ، و " على " في قوله : " على الغارات " للدلالة على الاستعلاء ، أي أن هيبة الممدوح تغير بدلًا عنه على غارات عدوه مُبْعِدَةً لها عن إبله المُسَيَّبة التي لا راعي لها ، ومستعلية عليها لاستمدادها القوة من صاحبها القاتل السيفَ في جسم القتيل به .

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير ٦ / ٤٠٩ / رقم : ٩٨٢١ / والحديث ضعيف / لعبد الرءوف المناوي / دار المعرفة / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية / ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢م .

واللام في لفظة " الغارات " للدلالة على الاستغراق ؛ لتشمل كل صور وأنواع الغارات أيًّا كانت قوتها وشدتها ، وأيًّا كان شأنها وحجمها .

وفي قوله : " تغير عنه على الغارات هيبته " استعارة مكنية ، حيث شبهت هيبة الممدوح بالإنسان المغير على عدوه ، ثم حذف المشبه به ، وأتي بشيء من لوازمه وهو الإغارة ، وأثبت للمشبه على ، وفي هذه الاستعارة لون من التشخيص والتجسيم لهيبة الممدوح ، وتصوير لها – وهي أمر معقول – بصورة المُحَسّ المشاهد ، وفيها أيضًا ضرب من تفخيم المعنى وتعظيمه ، ونوع من المبالغة فيه ، هذا بالإضافة إلى ما فيها من التخييل الناشئ عن إثبات لازم المشبه به للمشبه ، وفي ذلك جَذْب لانتباه المخاطب ، وتحريك لمشاعره ، وإثارة لعواطف .

وفي إضافة " هيبة " إلى ضمير الغائب العائد إلى الممدوح ضرب من تعظيم هذه الهيبة وتفخيمها لعظمة صاحبها وفخامته .

ومعنى هذه الجملة " تغير عنه على الغارات هيبته " قد أشار إليه المتنبي في قوله في مدح سيف الدولة :

قَدْ نابَ عنكَ شديدُ الخَوْفِ واصْطَنَعَتْ لَكَ المَهابةُ ما لا تَصْنَعُ البُهَمُ (١)

ولعل المتنبي قد نظر في هذا المعنى إلى قول أستاذه أبي تمام في مدح المعتصم بالله :

لَمْ يَغْزُ يومًا ولَمْ يَنْهَدْ إلَى بَلَدٍ إلّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ من الرُّعُبِ (٢)

وجملة " ومالُه بأقاصي الأرضِ أَهْمالُ " ابتدائية استئنافية ، والواو هنا واو الاستئناف أفادت ربط الكلام بعضه ببعض ، وعطفت مضمون الجملة الداخلة عليها على مضمون الكلام السابق ، حيث إن مضمون الكلام الداخلة عليه مُرَتَّبٌ على مضمون الكلام السابق عليها تَرَتُّبَ النتيجة على المقدمة ، وتَرَتُّبَ

(١) ديوانه / ٣٣١ / من البسيط .
(٢) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي ١ / ٥٩ / من البسيط .

المعلول على العلة ، إذ إن إغارة هيبة الممدوح على غارات أعدائه تَرَتَّبَ عليها جَعْلُ إبله ترعى بأقاصي الأرض سُدًى وبلا راع .

وفي إضافة لفظة " مال " إلى ضمير الهاء العائد إلى الممدوح دلالة على عِظَم هذا المال وشرفه وكثرته ، فهو مال عظيم القيمة بعظمة صاحبه ، ومتنوع الأصناف بتنوع خبراته ومهاراته .

والتعبير بلفظة " أقاصي " يوحي بعِظَم هيبة الممدوح ، وورودها بصيغة الجمع يوحي بذيوع هذه الهيبة وانتشارها في جميع أرجاء الأرض .

وتعريف " الأرض " باللام للدلالة على الجنس ، فاللام هنا أغنت عن تفصيل متعذر ، إذ لا يستطيع الإنسان أن يستقصي جميع أطراف الأرض وأرجائها .

والتعبير بصيغة الجمع " أَهْمال " يشير إلى كثرة أموال الممدوح وتنوعها ، هذا بالإضافة إلى ما في هذا التعبير أيضًا من مقابلة الجمع " أَهْمال " بالجمع " أقاصي " واللام في قول المتنبي :

لَهُ مِنَ الْوَحشِ ما اخْتارَتْ أَسِنَّتُهُ عَيرٌ وَهَـــيْقٌ وَخَنْسَاءٌ وَذَيَّالُ

للدلالة على الاختصاص ، أي أن اختيار أسنة الممدوح ما تشاء من هذه الأنواع التي ذكرها من الصيد من حمار وحش ، وذكر نعام ، وبقرة وحشيّة ، وثور وحشيّ أمر خاص به دون غيره .

واللام في لفظة " الوحش " للدلالة على الاستغراق ، أي أن الممدوح له من كل أفراد الوحش ما اختارت أسنته صيده ، فلا يفوت رغبته ، ولا يسبق أسنته .

وعبر المتنبي بـــــ " ما " الموصولة الدالة على العموم ، وهذا يوحي بأن كل أنواع الصيد رهن إرادة الممدوح وإشارته يسبقها بركضه ، ويملكها بكرم خيله .

وفي قوله : " اختارت أسنّته " استعارة مكنية ، حيث شبهت الأسنّة بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو الاختيار ، وأثبت للمشبه ، وفي هذه الاستعارة تصوير للأسنّة بصورة العاقل المختار المريد الذي يأخذ ويترك ،

ويقبل ويرفض ، وفي هذا بثّ لروح الحياة والعقل في هذه الأسنّة ، يقول كلٌّ من اليازجي والبرقوقي : " وجَعَلَ الاختيار للأسنّة مجازًا ؛ لأنه يطلب الصيد بها ، فكأنها هي التي تختار " (١) .

وقوله : " غَيْرٌ وهَيْقٌ وخنساءٌ وذيّالُ " بدل تفصيل من " ما " (٢) ، وفي هذا ضرب من الإيضاح بعد الإبهام وتفصيل بعد الإجمال ، وهذا آكد للمعنى ، وأثبت وأوقع له في النفس ؛ لأن المعنى حينما يذكر مبهمًا مجملًا ثم يُوَضَّح ويُفَصَّل بعد ذلك يقع في النفس أطيب موقع ، ويتمكن لديها أفضل تمكن ؛ لأنه إذا أُلْقِيَ على سبيل الإبهام والإجمال تطلعت النفس إلى معرفته على سبيل التوضيح والتفصيل ، وعندما يأتي هذا التوضيح وذلك التفصيل يكون أشد وقعًا ، وأقوى أثرًا ، وأحسن لذة ، وأفضل متعة ؛ لأنه جاء بعد طلب وبحث ومشقة .

(١) العَرْف الطيب ٢ / ٣٦٨ ، شرح ديوان المتنبي ٣ / ٤٠٠ .
(٢) السابق نفسه .

المبحث الثالث : كـــرم أبـــي شـجـاع :

يقـــول المتنبي :

١٨– تُمْسي الضُّيُوفُ مُشَهّاةً (١) بِعَقْوَتِهِ (٢)
كَأَنَّ أَوْقاتَها فِي الطِّيبِ آصَالُ (٣)

١٩– لَوِ اشْـــتَهَتْ لَحْمَ قارِيها لَبادَرَها
خَرَادِلٌ (٤) مِنهُ فِي الشِّيزَى (٥) وَأَوْصَالُ (٦)

٢٠– لا يَعْرِفُ الرُّزْءَ فِـــي مالٍ وَلا وَلَدٍ
إلاَّ إذا حَفَزَ (٧) الضِّـــيفَانَ تَرْحَالُ

٢١– يُرْوِي صَدَى الأَرْضِ مِنْ فَضْلاتِ ما شَرِبُوا
مَحْضُ (٨) اللِّقاحِ (٩) وَصَافِي اللَّوْنِ سَلْسالُ

٢٢– تَقْرِي صَوَارِمُهُ السّاعاتِ عَبْطَ (١٠) دَمٍ
كَأَنَّمَا السَّاعُ (١١) نُزَّالٌ وَقُفّالُ

---

(١) مُشَهّاة : بمعنى مُشْهاة : أي : معطاة ما اشتهت ، من الفعل أشْهى ، يقال : أشْهاه : أعطاه ما يشتهيه . لسان العرب ، المعجم الوسيط / مادة : شهو .

(٢) العَقْوة : هي الساحة والمكان المتسع أمام الدار أو المَحَلّة أو حولهما . لسان العرب ، القاموس المحيط / مادة : عقو .

(٣) آصال : جمع أصِيْل ، ويرى البعض أنها جمع أُصُل ، وأُصُل جمع أصِيْل ، فهو على هذا جمع الجمع ، وهو العَشِيّ ، أو الوقت حين تَصْفَرّ الشمس لمغربها . لسان العرب ، المعجم الوسيط / مادة : أصل .

(٤) خَرادل : جمع خَرْدَلة ، وهي القطعة من اللحم . السابق / مادة : خردل .

(٥) الشِّيْزَى : هي جِفان تُصْنَع من خشب أسود . السابق / مادة : شيز .

(٦) أوْصال : جمع وُصْل ووِصْل - بضم الواو وكسرها - وهو كل عضو على حدة لا يُكْسَر ، ولا يُخْلَط بغيره ، ولا يُوْصَل به غيره . السابق / مادة : وصل .

(٧) حَفَزَ : حَثَّ ، يقال حَفَزَ فلانٌ فلانًا إلى الأمر : دَفَعَه إليه وحَثَّه عليه ، وهو حافز ، والجمع حوافز . السابق / مادة : حفز .

(٨) المَحْض : اللبن الخالص بلا رغوة ، ولم يخالطه ماء حلوًا كان أو حامضًا ، يقال مَحَضَ فلانٌ فلانًا يَمْحَضه مَحْضًا : سقاه لبنًا خالصًا لا ماء فيه . السابق / مادة : محض .

(٩) اللِّقاح : جمع لَقْحة ولِقْحة – بفتح اللام وكسرها – وهي الناقة الحلوب الغزيرة اللبن . لسان العرب ، تاج العروس / مادة : لقح .

(١٠) العَبْط : هو الطريّ الخالص غير النَّضِيْج من الدم . السابق / مادة : عبط .

(١١) الساع : جمع الساعة ، وهي جزء من أجزاء الليل والنهار . لسان العرب / مادة : سوع .

٢٣- تَـــجْـــرِي النُّفُوسُ حَوَالَيْـــهِ مُـــخَلَّـــطَـــةً
مِـــنهَا عُداةٌ وَأَغْنَـــامٌ وَآبَالُ

٢٤- لا يَحْرِمُ الْبُعْدُ أَهْلَ الْبُعْدِ نائِلَهُ
وغَيْـــرُ عَاجِزَةٍ عَنْهُ الْأُطَـــيْفَالُ (١)

لقد تحدث المتنبي في هذه الأبيات السبعة من البيت الثامن عشر إلى البيت الرابع والعشرين عن كرم ممدوحه وجوده ، فذكر أن ضيوفه إذا أمسوا بأفنية داره طابت أوقاتهم ، وباتوا مُكَرَّمين بحيث لا يشتهون شهوة إلا جاءتهم ، فأوقاتهم عنده كلها طيبة كالآصال لطيبها ، وبرد نسيمها ، ثم أبان عن عِظَم كرمه ، وحفاوته بضيوفه ، فذكر أنه لا يبخل عليهم بشيء ، حتى لو اشتهوا لحمه لما بخل عليهم به ، ولبادرهم بقِطَعٍ من لحمه حرصًا منه على مَسَرَّتهم ، وذكر أن ممدوحه لا يعرف طعم مصيبة فَقْدِ المال والولد إلا في ارتحال الضيفان من داره ، وأنه يسقي الأرض من فضلات ما يسقيه ضيوفه من شراب اللبن الخالص والخمر الصافي السلسال ، ثم ذكر أن الممدوح يريق كل ساعة دمًا طريًّا من أعدائه ، ويذبح لضيفانه ، وكأن الساعات قوم ينزلون عليه وقوم يَقْفِلون عنه ، وذكر أيضًا أن الممدوح يقتل الأعداء ، وينحر الإبل ، ويذبح الغنم حتى اختلطت حوله دماء الأعداء بدماء الذبائح التي يقدمها لضيفانه ، ثم ذكر كذلك عموم كرمه ، فذكر أن كرمه يصل الأقرباء والبُعَداء ، ويتقلب فيه الأقوياء والضعفاء ، وينعم به الكبار والصغار ، ولم يُحْرَم منه أحد حتى الأطفال الذين لا يستطيعون النهوض إليه ، ولا يقدرون على التعرض لمعروفه .

(١) الأطيْفال : تصغير الأطفال جمع طفل ، وصَغَّر الجمع على اللفظ .

وعبر المتنبي بالفعل المضارع " تُمْسِي " في قوله :

١٨- تُمْسِي الضُّيُوفُ مُشَهّاةً بِعَقْوَتِهِ

كَأَنَّ أَوْقاتَهَا فِي الطِّيبِ آصَالُ

للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن إعطاء الممدوح ضيوفه كل ما يشتهون أمر حادث ومتجدد باستمرار شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن ، فكلما جاءوا وجدوا ما يشتهون .

واللام في لفظة " الضيوف " للدلالة على الاستغراق ، فكرم الممدوح يشمل ويعم ويستغرق كل الضيوف دون استثناء .

واستخدم المتنبي لفظة " ضُيُوف " على زنة فُعُول – جمع كثرة – دون " أَضْياف " على زنة أَفْعال – جمع قلة – للدلالة على كثرة الضيوف ، وسعة كرم الممدوح ، وغزارة نائله ، وعِظَم جوده .

وفي إضافة " عَقْوَة " إلى الضمير – وهو هاء الغائب – العائد إلى الممدوح إيحاء بسعة هذه العَقْوة وفَساحتها وعِظَمها .

وجاءت جملة " كأن أوقاتها في الطيب آصال " مفصولة عن جملة " تُمْسِي الضيوف مُشَهّاة بعَقْوَته " لما بين الجملتين من كمال الاتصال ، حيث إن الجملتين متفقتان في الخبرية لفظًا ومعنى ، وبينهما من قوة الاتصال والترابط والتلاحم ما يمنع الوصل بينهما بالواو ، حيث إن الجملة الثانية جاءت مؤكِّدة ومُبَيِّنة ومُوَضِّحة معنى الجملة الأولى ، فكون أوقات الضيوف مثل الآصال في الطيب أمر يؤكِّد ويُبَيِّن ويُوَضِّح معنى كون الضيوف تُمْسِي مُشَهّاة بساحة دار الممدوح وفناء منزله .

وفي جملة " كأن أوقاتها في الطيب آصال " تشبيه رائع وبديع ، حيث شبه الشاعر الأوقات الطيبة كلها التي يقضيها الضيوف عند الممدوح ، وقد نالوا فيها كل ما اشتهته أنفسهم بالآصال في الطيب ، حيث انقطاع الحر ، وهبوب النسيم ، وفي هذا إشارة إلى حسن استقبال الممدوح لضيوفه ، وحفاوته بهم .

واستخدم المتنبي أداة التشبيه " كَأَنّ " هنا دون الكاف لكونها أقوى وأبلغ من الكاف في الدلالة على إلحاق المشبه بالمشبه به ، يقول حازم القرطاجنّي عنها : " فهي إنما تستعمل حيث يقوى الشبه ، حتى يكاد الرائي يشك في أن المشبه هو المشبه به أو غيره " [١] .

وهذه القوة ، وتلك المبالغة ناتجتان من كثرة حروفها ، حيث إن زيادة المبنى تدل على الزيادة في المعنى ، وزيادة الحروف تكون غالبًا دليلًا على المبالغة في المعنى ، وهذا على اعتبار أنها بسيطة [٢] ، أو من تركيبها على اعتبار كونها مركبة من الكاف و " أَنّ " المشددة على رأي الخليل [٣] ، هذا بالإضافة إلى أن دخول " كَأَنَّ " على المشبه يشعر بأن الكلام بُنِيَ من أول الأمر على التشبيه ، وذلك بخلاف الكاف التي تدخل على المشبه به .

ونلحظ هنا أن المتنبي ذكر وجه الشبه " في الطيب " من أجل تفصيله وتوضيحه ، ولفت النظر إليه ، والانتباه له ؛ وذلك لأنه يمثل الصفة التي يراد إبرازها ، والتركيز عليها ، والعناية والاهتمام بها .

وجاء تعريف لفظة " الطيب " باللام للدلالة على بيان الجنس والحقيقة والماهية لهذه الصفة التي جعلها الشاعر مشتركة بين كلٍّ من المشبه والمشبه به .

وخص الشاعر الآصال بالذكر ؛ لأنها من الأوقات المستطابة ، خاصة في الصيف ، حيث إنها أوقات زوال الحر وانقطاعه ، وهبوب النسيم وبرده .

ولعل المتنبي نظر في جملة التشبيه هذه " كأن أوقاتها في الطيب آصال " إلى قول أبي تمام :

أَيَّامُنا مَصْقُولَةٌ أَطْرافُها بكَ واللَّيالِي كُلُّها أَسْحارُ [١]

وفي قول المتنبي :

---

(١) منهاج البلغاء وسراج الأدباء / ٣٩٠ / تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة / تونس / ١٩٦٦م .
(٢) عروس الأفراح - ضمن شروح التلخيص - ٣ / ٣٩٤ .
(٣) الكتاب ٣ / ١٥١ .
(١) ديوانه ٢ / ١٨١ / من الكامل .

لَوِ اشْتَهَتْ لَحْمَ قارِيهَا لَبَادَرَهَا خَرَادِلٌ مِنهُ فِي الشِّيزَى وَأَوْصَالُ

ضرب من المبالغة ، ألا وهو الغلو [٢] ، حيث ذكر المتنبي أن ضيوف الممدوح تنال عنده كل ما تشتهي ، حتى لو اشتهت لحم الممدوح لما بخل عليهم به ، ولما تعذر ذلك عليهم ، ولنحر لهم نفسه ، ولأتاهم على العجلة في الجِفان قِطَع وأوصال من لحمه حرصًا منه على موافقتهم ومَسَرَّتهم ، وهذا المعنى غير ممكن عقلًا ولا عادة ، ولكن الشاعر قَرَنَه بأداة الشرط " لو " التي تُقَرِّبُ هذا الغُلُوّ من القبول ؛ وذلك لأنها تدل على امتناع حدوث الجواب لامتناع حدوث الشرط ، فيمتنع أن يقدم الممدوح لضيوفه قطعًا من لحمه لامتناع اشتهائهم ذلك ، وإنما ذلك إشارة إلى عِظَم إكرامه لضيوفه ، وحرصه على مَسَرَّتهم ، يقول العكبري : " وهذا من الإفراط الذي يَجْسُرُ فيه بما لا يكون إشارة إلى استيفاء الغاية فيما يمكن " [٣] .

وفي التعبير بالاشتهاء في قوله : " اشتهت " دلالة على أن ما يقدمه الممدوح لضيوفه محل اشتهاء لهم ، ورغبة منهم ، ومتعة لهم ، فهو لا يقدم لهم إلا ما تشتهيه وتستطيبه أنفسهم ، وتَلَذّه أعينهم .

وفي إضافة لحم إلى القاري – وهو الممدوح – دلالة على شرف هذا اللحم ، وعِظَم منزلته ، ورفعة شأنه ، هل هناك شيء يقدمه الممدوح لضيوفه أغلى وأعظم من هذا ؟ !!

وقال المتنبي : " بادرها " ولم يقل : " أتاها " ، أو " جاءها " ؛ لما في المبادرة من الدلالة على العجلة والإسراع ، وهذا أبلغ وأنسب وأليق بمقام المدح .

وفي جمع لفظتي " خرادل " و " أوصال " وتنكيرهما دلالة على كثرة ما يقدمه الممدوح لضيوفه ، حتى ولو كان ذلك من لحمه ، وفي هذا إشارة إلى بالغ حفاوته بضيوفه ، وحُسْن تقديره إياهم ، وعِظَم إكرامه لهم ، وكثرة إحسانه إليهم .

---

(٢) الغُلوّ : هو الإفراط في وصف الشيء بالمستحيل وقوعه عقلًا وعادة . خزانة الأدب وغاية الأرب ٢ / ١٦ .

(٣) التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٨١ .

وفي عطف لفظة " أوصال " على لفظة " خرادل " دلالة على عِظَم برّ الممدوح وحفاوته بضيوفه ، حيث إنه نَوَّعَ لهم في اللحم ، فجعل منه قطعًا وأعضاء غير مكسورة ، وغير مخلوطة ، ولا موصولة بغيرها ، أي كل عضو على حدة ، وهذا غاية في الإكرام ، ونهاية في الإحسان .

واللام في لفظة " الشِّيْزَى " للدلالة على العهد الذهني ، أي الشِّيْزَى المعهودة في ذهن كلٍّ من الممدوح والشاعر .

وفي قول المتنبي :

لا يَعْرِفُ الرُّزْءَ فِي مالٍ وَلا وَلَدٍ إلاَّ إذا حَفَزَ الضِّيفَانَ تَـــــرْحَالُ

قصر ، حيث قصر معرفة المصيبة في المال والولد على فقدان الضيوف ورحيلهم ، أي أن الممدوح لا يحس بمصيبة فَقْد المال والولد إلا برحيل زُوّاره وذهاب ضيوفه من عنده ، حيث يناله من فَقْدهم ورحيلهم ما ينال المصاب بفقد ماله وولده ورحيلهما !!

واختار الشاعر من طرق القصر طريق النفي والاستثناء هنا ؛ لأن المعنى الذي يريد إثباته يحتاج إلى التأكيد والتقرير والتثبيت في نفس المتلقي لكونه من الأمور الغريبة والعجيبة والعظيمة التي تحتمل أن تكون محل شك أو إنكار ، ومعلوم أن طريق النفي والاستثناء في القصر يستخدم حينما يكون المعنى المُتَحَدَّث عنه محل شك أو إنكار لغرابته وبُعْده عن المألوف والمعتاد ، ولكونه أمرًا عجيبًا وعظيمًا كما سبق بيان ذلك في أثناء التعليق على البيت التاسع [(١)] .

وفي هذا البيت تشبيه ضمني ، حيث شبه الشاعر ما ينال ممدوحه ويصيبه ويؤلمه بسبب تَرَحُّل الضِّيْفان وذهابهم عنه بما ينال مَنْ يصاب بفَقْد ماله وولده ، ويُرْزَأ فيهما .

ولقد أخذ التبريزي على المتنبي هذا المعنى ، وذلك لأن الأصل في الضيف عدم دوام المُكْث وطول الإقامة ، يقول : " وهذه مبالغة تخرج إلى غير الحق ؛ لأن رحيل الضيف منفعة له إذا كان مسافرًا ، وإنما يَعْبُر الضَّيْف كالمجتاز " [(٢)] .

---

(١) البحث صـ ٢٥ .

(٢) المُوْضِح في شرح شعر أبي الطيب المتنبي ٤ / ٤١٨ .

ولكن يُرَدُّ على التبريزي بأن المتنبي لم يتعرض لطول مدة إقامة الضيوف ، وإنما أراد أن يصور الحالة الشعورية الحزينة التي تُلِمّ بالممدوح حينما يحس بِهَمّ ضيوفه بالرحيل ، وفي هذا كناية عن عِظَم الترحيب والتكريم والحفاوة من الممدوح بضيوفه .

وعبر الشاعر بالفعل المضارع " يعرف " للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن معرفة الممدوح أَلَم الرُّزْء في المال والولد إذا حَفَزَ التَّرْحالُ الضيوفَ أمر حادث ومتجدد شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن ، فكلما هَمَّ الضيوف بالرحيل كلما أحسّ الممدوح بالحزن ، وانتابته الحالة الشعورية التي يكون عليها من فَقَدَ ماله وولده .

وعبر الشاعر بلفظة " الرُّزْء " لدلالتها على " المصيبة العظيمة " [٣] ، وعَرَّفَها باللام للدلالة على الجنس ، أي جنس الرُّزْء وحقيقته بدون النظر إلى أفراده .

وخص الشاعر المال والولد بالذكر ؛ لأنهما زينة الحياة الدنيا ، وأعظم ما فيها من متاع وأجلّ ، وبالتالي تكون المصيبة فيهما أشد ألمًا ، وأعظم تأثرًا بالحزن عليهما ، والأسف على فواتهما .

وجمع المتنبي بين المال والولد بالعطف بالواو للدلالة على عِظَم المصيبة ، وشدة الفجيعة ، الأمر الذي يترتب عليه عِظَم الحزن والأَسَى ، وشدة الوَجْد والأَلَم . وهذا يعكس لنا مدى حفاوة الممدوح بضيوفه وتعلقه بهم .

وقَدَّمَ المال على الولد ؛ لأن المال أسبق خطورًا بأذهان الناس ، وأشد تعلقًا بقلوبهم لعراقته فيما عُلِّقَ به من الزينة ؛ ولذا يرغب فيه ويصبو إليه الصغير والكبير ، والشاب والشيخ .

واستخدم الشاعر أداة الشرط " إذا " في قوله : " إذا حَفَزَ الضِّيْفان تَرْحالُ " للدلالة على القطع بتحقق وقوع الشرط ، حيث إن رحيل الضيوف – مهما طالت مدة إقامتهم – أمر محقق الوقوع ، ومُتَيَقّن الحصول ، ومقطوع به لا محالة . وقال المتنبي : " حَفَزَ الضِّيْفانَ تَرْحالُ " ولم يقل – مثلًا – : " رحل الضيفان " للدلالة عل

(٣) الرائد / مادة : رزأ / جبران مسعود / دار العلم للملايين / بيروت / لبنان / الطبعة السابعة / ١٩٩٢م .

شدة تعلقه بضيوفه وعِظَم حفاوته بهم ، فإذا كانت المصيبة التي تنال الممدوح شديدة وعظيمة بمجرد هَمّ الضيوف بالرحيل فإن مصيبته عند تحقق الرحيل تكون أشدّ وأجلّ وأعظم .

واللام في لفظة " الضَّيْفان " للدلالة على الاستغراق ، أي أن هذه المصيبة التي تلحق الممدوح بسبب هَمّ الضيوف بالرحيل تعمّ وتشمل كل أفراد الضيوف .

وعبر المتنبي بالمضارع " يُرْوِي " في قوله :

يُرْوِي صَدَى الأَرْضِ مِنْ فَضْلاتِ ما شَرِبُوا

مَحْضُ اللِّقاحِ وَصَافِي اللَّوْنِ سَلْسالُ

للدلالة على الحدوث والتجدد المستمر لإرواء الممدوح الأرض من فضلات ما شرب ضيوفه من لبن خالص وخمر صافٍ سلسال سائغ ، ويحتمل أن يكون التعبير بالمضارع هنا لاستحضار صورة إرواء الممدوح الأرض من فضلات ما شرب ضيوفه أمام المتلقي حتى كأنه يراها بناظريه ، ويشاهدها تحدث أمام عينيه .

واستخدم المتنبي الفعل " يُرْوِي " مضارع " أَرْوَى " ومصدره " إرواء " بدلًا من الفعل " يَرْوِي " مضارع " رَوَى " ومصدره " رَيّ وريّ " – بفتح الراء وكسرها – ؛ لأن الإرواء أبلغ من الرّيّ – بفتح الراء وكسرها – حيث إن الرّيّ سَقْي ، أما الإرواء فهو سقي حتى الشِّبَع ، يقال : رَوَى الزرع رَيًّا وريًّا : سقاه ، وأَرْوَى الإبل : سقاها حتى شبعت ، وإرواء الغليل : إشباعه [1] ، وفي هذا إشارة إلى عِظَم جود الممدوح ، وجلال حفاوته بضيوفه .

وفي إرواء الممدوح الأرض بفضلات ما تبقى من شراب الضيوف كناية عن سعة الضيافة ، وكثرة ما يُبْذَل للزوّار ، حيث إن ما يبقى منهم يقوم للأرض مقام السقي البالغ ، ويحل منها محل المطر الساجم ، كما فيه كناية أيضًا عن عِظَم حفاوة الممدوح بضيوفه وتقديره لهم ، حيث إنه لم يقدم للوفد اللاحق من الضيوف ما تبقى من الوفد السابق ، وإنما يَتَلَقَّى كل وفد بِقِرَى جديد يستحدثه لهم .

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة / مادة : روي / د / أحمد مختار عمر ومن معه / عالم الكتب / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م .

وعبر الشاعر بلفظة " صَدَى " دون " عطش " لدلالة " صَدَى " على " شدة العطش " [٢] ، وهذا يشير إلى كثرة ما تُسْقَى الأرض به ، الأمر الذي يوحي بسعة كرم الممدوح ، وغزارة جوده .

وفي قوله : " صَدَى الأرض " استعارة مكنية ، حيث شبهت الأرض بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتي بشيء من لوازمه وهو الصَّدَى ، وفي هذا تصوير للأرض بصورة الإنسان الصادي ، هذا بالإضافة إلى بَثّ روح الحياة والشعور والإحساس في الأرض ، ولا يخفى ما في إثبات الصَّدَى للأرض من تخييل يكسو الأسلوب روعة وبهاء ، ويبعث في نفس المتلقي دهشة وإعجابًا .

وفي تعريف " الأرض " باللام دلالة على العهد الذهني ،أي الأرض المعهودة في ذهن كلٍّ من الشاعر والممدوح بحيث إذا ذكرت انصرف الذهن إليها .

ودلالة حرف الجر " من " في قوله : " من فضلات ما شربوا " للتبعيض ، وهذا يوحي بكثرة سؤر ضيوف الممدوح ، حيث إنه يُرْوِى صَدَى الأرض ببعض ما تبقى ، الأمر الذي يوحي بسعة العطاء ، وعِظَم الرِّفْد ، وكثرة القِرَى المُقَدَّم لأولئك الضيوف .

وتنكير لفظة " فضلات " يدل على التعظيم والتكثير ، وجمعها يدل على التنويع والتصنيف ، فالممدوح يقدم لضيوفه أنواعًا كثيرة ، وأصنافًا عديدة .

وفي إسناد الفعل " يُرْوِي " إلى " مَحْضُ اللِّقاح وصافى اللَّوْن سلسال " مجاز عقلي بعلاقة السببية ؛ لأن شراب اللبن الخالص والخمر الصافي السلسال السائغ ليس هو الفاعل الحقيقي لإرواء صَدَى الأرض ، وإنما الفاعل الحقيقي هو الممدوح ، ولكن لما حَدَثَ الإرواء بهذا الشراب أُسْنِدَ الفعل إليه ، ونُزِّلَ منزلة الفاعل الحقيقي إظهارًا لقيمته ، واهتمامًا بشأنه ، ومبالغة في بيان منزلته .

وفي اختيار المتنبي المَحْض الخالص من اللّبن والصافي السلسال من الخمر كناية عن عَظَم إكرام الممدوح لضيوفه ، وبديع إحسانه إليهم ، وحسن صنيعه معهم ، وبالغ

(٢) لسان العرب / مادة : صدي .

حفاوته بهم ، وعظيم تقديره وتكريمه لهم ، حيث قَدَّمَ لهم أحسن ما يشتهون وأفضله وأكرمه .

واللام في كلٍّ من " اللِّقاح " و " اللَّوْن " للجنس ، أي جنس كل واحد منهما وحقيقة وماهيته ، وتكمن بلاغتها في الدلالة على حقيقة الشيء وماهيته ، مع الإغناء عن تفصيل ما يتعذر تفصيله .

ولم يعطف الشاعر لفظة " سلسال " على " صافي اللون " للدلالة على كمال اجتماع هذين الوصفين في الخمر التي يقدمها لضيوفه ، حتى كأنهما صفة واحدة .

وعبر المتنبي بالفعل المضارع " تَقْرِي " في قوله :

تَقْرِي صَوَارِمُهُ السّاعاتِ عَبْطَ دَمٍ كَأَنَّمَا السَّاعُ نُزَّالٌ وَقُـــفَّالُ

للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن إراقة الممدوح الدماء ذبحًا ونحرًا إطعامًا لضيوفه أمر حادث ومتجدد باستمرار شيئًا فشيئًا ، وساعة بعد ساعة ، وحالًا بعد حال .

وفي إسناد هذا الفعل " تَقْرِي " إلى الفاعل المجازي وهو الصوارم مجاز عقلي ، علاقته السببية ، حيث إن السيوف الصوارم هي سبب قِرَى الممدوح ضيوفه ، وفي هذا الإسناد ضرب من المبالغة ، حيث أبرز صوارم الممدوح قائمة بإكرام ضيوفه ، هذا بالإضافة إلى ما في المجاز من إثارة خيال المتلقي ، والتفنن في التعبير .

وقال المتنبي : " صوارمه " ، ولم يقل : " سيوفه " للدلالة على أن سيوف الممدوح ليست مجرد سيوف ضعيفة وغير قاطعة ، وإنما هي سيوف صوارم قواطع بتّارة ، وفي إضافة " صوارم " إلى ضمير الغائب العائد إلى الممدوح ضرب من تعظيم تلك الصوارم وتفخيمها .

وفي لفظة " الساعات " استعارة تصريحية ، حيث شبهت الساعات بالضيوف التي يَقْرِيْها الممدوح ، ثم حذف المشبه ، وصرح بلفظ المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وفي هذه الاستعارة تصوير للساعات بصورة الضيوف التي يقدم لها القِرَى ، وفي هذا ضرب من المبالغة ، حيث أبرزت تواصل قِرَى الممدوح وتكراره

المستمر ، ففي كل جزء من الوقت يجدد لضيوفه النحر والذبح ، ويقدم لهم قِرَى جديدًا مستحدثًا .

وفي قوله : " عَبْط دَمٍ " مجاز مرسل بعلاقة السببية ، حيث ذكر السبب ، وأراد المسبب ، وهو اللحم الطريّ الطازج ، والجديد الحديث ، وعبر عن اللحم الطريّ بعَبْط الدم إبرازًا لقيمته ، حيث إن عَبْط الدم يستلزم أن يكون اللحم جيدًا طازجًا ، وجديدًا حديثًا .

هذا على اعتبار أن الدم هنا يكون مما يذبحه الممدوح وينحره ؛ ليقدمه قِرَى لضيوفه ، أما ابن جني فقد جعل الدم هنا من الأعداء فقط فقال عن الممدوح : " هو كل ساعة يريق دمًا عَبِيطًا من أعدائه " [١] ، وبناء على ذلك تكون جملة " تَقْرِي صُوارِمُه السّاعات عَبْطَ دَمٍ " كناية عن المبالغة في قتل الممدوح أعداءه ، وفتكه بهم ، وسرعة ملاحقته لهم ، وإجهازه عليهم .

واللام في لفظة " الساعات " للدلالة على الاستغراق ، أي استغراق كل أفراد الجنس ، وفي هذا إغناء عن تفصيل ما يتعذر تفصيله واستقصاؤه ، واللام في " الساع " – جمع ساعة – للدلالة على العهد الذكري ، حيث سبق ذكرها صريحًا في الشطر الأول من هذا البيت .

وجاء الشاعر بجملة " كأنما الساع نُزّال وقُفّال " مفصولة عن جملة " تَقْرِي صوارمه الساعات عَبْطَ دَمٍ " لكمال الاتصال ، حيث إن جملة التشبيه جاءت مُبَيِّنة ومُوَضِّحة معنى الجملة الأولى ، وفي هذا البيان وذلك الإيضاح " تنشيط للنفس وإيقاظها ؛ لأنها حين تتلقى كلامًا ملفوفًا بشيء من الغموض تشتاق إلى بيانه ، وتستشرف في التعرف على وجهه ، فإذا جاء البيان صادف نفسًا يقظة متطلعة ، فيتمكن الكلام منها " [٢] .

وهنا شبه المتنبي الساع بالنُّزّال والقُفّال في التعاقب والتتابع والتوالي ، وفي هذا إشارة إلى أن الممدوح يعم ساعات زمانه بإراقة الدماء ، إما دماء ما ينحر ويذبح ؛ ليقدم

(١) الفَسْر ٣ / ٢٤٣ .
(٢) دلالات التراكيب / ٣٠٣ .

للضيوف ، وإما دماء أعدائه للفتك بهم ، والتخلص منهم ، ويحتمل أن يكون المقصود إراقة هذين النوعين من الدماء معًا ، فهناك دماء من جرّاء ما يذبح وينحر للضيوف ، وهناك دماء ممن يقتلهم ويُوْقِع بهم من أعدائه .

واستخدم الشاعر أداة التشبيه " كَأَنَّ " هنا دون الكاف للدلالة على المبالغة في التشبيه ، وذلك لأنها أقوى وأبلغ في الدلالة على إلحاق المشبه بالمشبه به ، هذا بالإضافة إلى أنها تستعمل حيث يقوى الشبه بين الطرفين حتى يكاد الرائي يشك في أن المشبه هو المشبه به أو غيره ، وفي هذا تأكيد للصورة في نفس المخاطب ، وترسيخ لها في عقله ولُبّه .

وحذف المتنبي وجه الشبه هنا إشعارًا بدعوى الاتحاد بين كلٍّ من المشبه والمشبه به ، حيث إن حذفه يُوَسِّع دائرة احتماله ، ويشعر ويؤذن بأن المشبه يشبه المشبه به في كل صفاته ، وهذا أبلغ وأعظم وآكد .

وبين كلٍّ من " نُزّال " و " قُفّال " طباق يوضح المعنى ويؤكده في نفس المتلقي ، حيث أفاد أن ضيوف الممدوح وفود وجماعات متعاقبة يخلف بعضها بعضًا دون انقطاع ، ولا يخفى ما في الجمع بين الضدين من تناسب ، حيث إن المعنى يستدعي ذكر ضده ، ويُبَيِّنه ، ويُظْهِر حسنه .

والتعبير بالمضارع " تَجْرِي " في قول المتنبي :

تَجْرِي النُّفُوسُ حَوَالَيْهِ مُخَلَّطَةً مِنهَـــا عُدَاةٌ وَأَغْنَامٌ وَآبَـــــــالُ

للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن جَرْي الدماء حول الممدوح مختلطة دماء الأعداء للإيقاع والإخافة بدماء الذبائح للإكرام والضيافة أمر حادث ومتجدد باستمرار حالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن ، دون فتور أو انقطاع .

ويحتمل أن يكون التعبير بالمضارع هنا لاستحضار هذه الصورة العجيبة الغريبة البديعة – وهي صورة جَرْي دماء الأعداء والذبائح مختلطة بعضها ببعض – أمام المخاطب كأنه يراها وهي تحدث أمام عينيه ، ويشاهدها وهي تقع تحت ناظريه .

وفي لفظة " النفوس " مجاز مرسل " بعلاقة السببية ، حيث ذكر الشاعر السبب ، وهو النفوس ، وأراد المسبب ، وهو الدماء ، لأنها هي التي تجري – أي تسيل – ووجود النفوس في الأجسام هو سبب وجود الدم فيها ، وذلك على حد قول السَّمَوْأَل بن عادياء :

تَسيلُ عَلَى حَدِّ الظُّباةِ نُفُوسُنا وَلَيْسَ عَلَى غَيْرِ الظُّبـاةِ تَسيلُ (١)

واللام في " النفوس " للدلالة على الجنس ، أي جنس الدماء وماهيّتها وحقيقتها التي تَجَوَّزَ الشاعر عنها بالنفوس .

والتعبير بـ " حواليه " يشير إلى كثرة الدماء ، فهي لا تجري أمام الممدوح ، ولا حتى أمامه وخلفه فقط ، وإنما تجري حواليه من كل جانب ، وفي هذا دلالة على كثرة شجاعته بقتله الأعداء ، وفتكه بهم ، وعِظَم كرمه بكثرة ما ينحره ويذبحه لضيوفه .

وفي قوله : " منها عُداةٌ وأغنامٌ وآبالُ " إيجاز بحذف المضاف ، إذ الأصل : " منها دَمُ عُداةٍ وأغنامٍ وآبالٍ " ثم حُذِفَ المضاف لدلالة السياق عليه ، وأُقِيْمَ المضاف إليه مُقامه ، وفي هذا لون من الإيجاز ، وضرب من الاختصار للأسلوب مما يثقل كاهله ، ويؤدي به إلى الترهل .

و " مِنْ " هنا تحتمل أن تكون تبعيضية ، أي بعض هذه النفوس عُداة وأغنام وآبال ، وتحتمل أن تكون لبيان الجنس ، أي تجري حواليه النفوس مُخَلّطةً التي هي عُداة وأغنام وآبال .

وعبر المتنبي بصيغة الجمع " عُداةٌ وأغنامٌ وآبالُ " جمع " عَدُوّ " و " غَنَم " و " إبِل " للدلالة على التكثير ، فالممدوح يكثر ممن يقتلهم من الأعداء ، ومما يذبحه من الغنم ، وينحره من الإبل ، وفي هذا إشارة إلى عِظَم شجاعته وكثرة جوده .

(١) ديوانا عُرْوة بن الورد والسَّمَوْأل / ٩١ / من الطويل / دار بيروت / بيروت / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م .

و " لا " في قول المتنبي :

لا يَحْرِمُ الْبُعْدُ أَهْلَ الْبُعْدِ نائِلَهُ وغَيْرُ عَاجِزَةٍ عَنْهُ الْأُطَـــيْـــفَالُ

نافية ، واستخدمها الشاعر لدلالتها على امتداد النفي ، وتخليصها المضارع للاستقبال ، وعبر بالمضارع " يَحْرِمُ " لدلالته على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن عدم منع البُعْد أهل البُعْد عطاء الممدوح الذي هو كنوال الغيث في عمومه وفيض البحر في شموله أمر حادث ومتجدد باستمرار شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن دون فتور أو انقطاع .

وفي إسناد الفعل " يَحْرِم " إلى الفاعل المجازي " البُعْد " مجاز عقلي علاقته السببية ، حيث إن البُعْد هو سبب الحرمان الذي نفاه الشاعر ، ولكن الفاعل الحقيقي للحرمان هو الممدوح ، وإنما أُسْنِد الفعل هنا إلى هذا السبب نظرًا لقوة تأثيره ، وكأن هذا السبب نظرًا لقوة تأثيره أصبح فاعلًا للحرمان ، وفي نفي حرمان أهل البعد من عطاء الممدوح إشارة إلى عموم عطاء الممدوح وشمول نائله دون أدنى عائق أو مانع .

واللام في لفظة البُعْد الأولى للدلالة على الجنس ، أي حقيقة البُعْد وماهيته ، واللام في لفظة " البُعْد " الثانية للدلالة على العهد الذكري ، حيث سبق ذكرها .

وعبر المتنبي بإظهار لفظة " البُعْد " الثانية ، وكان مقتضى الظاهر أن يعبر بالإضمار فيقول : " لا يحرم البُعْد أهله نائله " ؛ ولعل ذلك الإظهار قد جاء لأمن اللبس ، حتى لا يفهم البعض أن الضمير في " أهله " عائد إلى الممدوح ، فيكون عطاء الممدوح قاصرًا على أهله فقط ، هذا بالإضافة إلى أن التعبير بالاسم الظاهر يظل محتفظًا بقدر كبير من التأثير في نفس المتلقي ، وذلك حينما يقرع السمع بجَرْسه ، وذلك ما لا ينهض به الضمير .

وفي إضافة " أَهْل " إلى " البُعْد " استعارة مكنية ، حيث شبه البُعْد بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو الأهل ، وأثبت للمشبه ، وفي هذا

ضرب من التصوير والتأثير والمبالغة ، وفي إثبات الأهل للبعد لون من التخييل يكسو الأسلوب رونقًا وبهاء ، ويخلع عليه حسنًا وجمالًا ، ويثير المتلقي ، ويحرك مشاعره ، ويلفت انتباهه .

وعطفت جملة " وغَيْرُ عاجزة عنه الأُطَيْفال " على جملة " لا يَحْرِمُ البُعْدُ أَهْلَ البُعْدِ نائلَه " للتوسط بين الكمالين ، حيث اتفقت الجملتان في الخبرية ، ووجدت المناسبة المسوغة للعطف ، ولم يوجد سبب يقتضي الفصل بينهما ، فالجملتان تعاضدتا وتآزرتا في إثبات عموم كرم الممدوح ، وشمول نائله ، حيث أفادت الجملة الأولى عموم عطاء الممدوح لكلٍّ من القريب والبعيد ، وعدم تأثير البُعْد في عموم هذا العطاء ، كما أفادت الجملة الثانية عموم معروف الممدوح ، وشمول برّه ، وامتداد نواله حتى يصل الأطفال الصغار ، وهذا يوحي بعِظَم كرم الممدوح وشمول نائله ، فهو يدرك كل أحد ، يدرك النائي البعيد كما يدرك الداني القريب ، ويصل إلى صغار الأطفال التي لا تقدر على النهوض إليه كما يصل إلى الكبار .

واللام في لفظة " الأُطَيْفال " للدلالة على الاستغراق العرفي ، أي أفراد أطفال بلد الممدوح ومحلته ومملكته ؛ لاستحالة استغراق جوده كل أفراد أطفال الأرض .

واستخدم المتنبي هذه اللفظة " الأُطَيْفال " بصيغة التصغير للدلالة على تقليل الذات ، وليس لتقليل العدد ؛ لأن تقليل العدد لا يتناسب مع مقام المدح بسعة كرم الممدوح وشموله .

المبحث الرابـع : شجاعة أبي شـجـاع :

يقـــول المتنبي :

٢٥- أَمْضَى الفَرِيقَينِ فِي أَقْرَانِهِ ظُبَةً [١]

وَالْبِيضُ [٢] هَادِيَةٌ وَالسُّمْرُ [٣] ضُلاَّلُ

٢٦- يُرِيكَ مَخْبَرُهُ أَضْعَافَ مَنْظَرِهِ

بَيْـــــنَ الرِّجالِ وَفِيها الْمَاءُ وَالْآلُ [٤]

٢٧- وَقَدْ يُلَقِّبُهُ الْمَجْنُونَ حَاسِدُهُ

إِذا اخْـــتَلَطْنَ وَبَعْضُ الْعَقْلِ عُقَّالُ [٥]

٢٨- يَرْمِي بِهَا الْجَيْشَ لا بُدٌّ لَهُ وَلَهَا

مِنْ شَقِّـــــهِ وَلَوَ انَّ الْـــجَيْشَ أَجْبَالُ

٢٩- إِذا الْعِدَى نَشِبَتْ فِيهِمْ مَخالِبُهُ

لَمْ يَجـــــــتَمِعْ لَهُمُ حِلْمٌ وَرِئْبَالُ [٦]

٣٠- يَرُوعُهُمْ مِنْهُ دَهْرٌ صَرْفُهُ أَبَداً

مُجـــــاهِرٌ وَصُرُوفُ الـــدَّهْرِ تَغْتالُ

٣١- أَنَالَهُ الشَّرَفَ الْأَعْلَى تَقَدُّمُهُ

فَمَا الَّذِي بِتَوَقِّي مَا أَتَى نَـــــالُـــوا

---

(١) الظُّبة : حَدّ السيف والسِّنان والنَّصْل والخَنْجَر وما أشبه ذلك ، وظُبة السيف : حَدّه ، وهو ما يلي طَرَف السيف ، والجمع ظُبًا وظِبات وأظْبٍ وظِبُون وظُبُون . لسان العرب ، تاج العروس / مادة : ظبو .

(٢) البِيْض : جمع الأبيض ، وهو السيف . المعجم الوسيط / مادة / بيض .

(٣) السُّمْر : جمع الأسمر ، وهو الرمح . السابق / مادة : سمر .

(٤) الآل : السراب . السابق ، لسان العرب / مادة : أول .

(٥) العُقّال : داء في رجل الدابة ، وانقباض شديد التوتر مؤلم في بعض العضلات يسبب وقوف الحركة وقتيًا ، وأكثر ما يعتري في الشتاء . السابق ، المعجم الوسيط / مادة : عقل .

(٦) رِئْبال : اسم من أسماء الأسد ، والجمع رآبل ، وربابيل ، ورآبيل ورآبلة . السابق ، تاج العروس / مادة : رأبل .

٣٢- إِذا الْمُلُوكُ تَحَلَّتْ كَانَ حِلْيَتَهُ
مُهَنَّدٌ وَأَصَمُّ الْكَعْبِ [١] عَسَّالُ [٢]

٣٣- أَبُو شُجاعٍ أَبُو الشُّجْعانِ قاطِبَةً
هَوْلٌ نَمَتْهُ مِنَ الْهَيْجاءِ أَهْوَالُ

٣٤- تَمَلَّكَ الْحَمْدَ حَتَّى ما لِمُفْتَخِرٍ
فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلا مِيمٌ وَلا دَالُ

٣٥- عَلَيْهِ مِنْهُ سَرَابِيلٌ مُضَاعَفَةٌ
وَقَدْ كَفَاهُ مِنَ الْماذِيِّ [٣] سِرْبَالُ

لقد تحدث المتنبي في هذه الأبيات الأحد عشر عن شجاعة الممدوح ، فذكر أن جيش الممدوح أقوى وأمضى من غيره سيفًا إذا التقى الجيشان ، وهَدَتْ السيوف ، وضَلّت الرماح ، وأفاد أن الممدوح جميل المظهر ، وأنه يُري من يَخْبُره أضعاف ما يؤديه مظهره ، وقد يلقبه حاسده بالجنون ، وهو لقب محمود ؛ لأن الجنون عند اختلاط السيوف يكون شجاعة وإقدامًا ، والعقل في هذه الحال مذموم ؛ لأنه يمنع من الإقدام ، ثم ذكر أن الممدوح يرمي جيش عدوه بالسيوف والخيل ليشقه حتى لو كان هذا الجيش كالجبال شدة وقوة وثباتًا ، وأنه على أعدائه كالدهر في قدرته عليهم ، إلا أنه أفضل من الدهر ؛ لأنه يروع أعداءه مجاهرة ، والدهر يغتال بصروفه ، ولا يؤذن بخطوبه ، وأخبر أن تقدم الممدوح أناله الشرف الأعلى بخلاف أعدائه حيث لم ينالوا شيئًا بتوقيهم لما قدم هو عليه من مباشرة الشدائد ، كما أخبر أنه تَزَيَّن بسيفه ورمحه في حين كانت زينة الملوك الحُلَل والتِّيْجان ، وأنه

(١) أصَمّ الكَعْب : الرمح .
(٢) عَسّال : مهتزّ ، يقال : عَسَلَ الرُّمْح عَسْلًا وعُسُولًا وعَسَلانًا : اضطرب واهتز للينه ، يقال : رُمْح عَسّال وعَسُول وعاسل : لدْن مضطرب . لسان العرب ، تاج العروس / مادة : عسل .
(٣) الماذِيّ : الدرع اللينة السهلة . لسان العرب ، القاموس المحيط / مادة : مذي .

أبو الشُّجْعان جميعًا ، وأنه هَوْل في أعين أعدائه رَبَّتْه ممارسة الحروب ومعالجة الخطوب ، وأنه قد استولى على الحمد وأحاط به حتى لم يَبْقِ لغيره منه شيء ، وأنه ارتدى من الحمد سرابيل مضاعفة في حين أنه لم يَرْتَدِ من الدروع إلا واحدًا ؛ لأنه يتوقى الذم بأكثر مم يتوقى الحرب .

وفي قول المتنبي :

أَمْضَى الفَرِيقَينِ فِي أَقْرَانِهِ ظُبَةً وَالْبِيضُ هَـادِيَةٌ وَالسُّمْرُ ضُلاَّلُ

إيجاز بحذف المسند إليه – أي المبتدأ – ، والتقدير: " هو أمضى الفريقين " ، وهنا نجد أن الشاعر طوى المسند إليه عندما أراد أن يقطع المعنى السابق مستأنفًا معنى آخر رغبة منه في تمييز المعاني وظهورها صنوفًا متباينة ، وألوانًا مختلفة ، وأجناسًا متغايرة ، إذ حذف المبتدأ هنا يجعل الجمل المستأنفة مستقلة بمعانيها غير مرتبطة بما قبلها تمييزًا لهذه المعاني عن المعاني السابقة ، الأمر الذي يفيد كمال المبالغة في المدح ، كما ينبئ بمدى انفعال الشاعر وامتلاء نفسه بتلك المعاني ، هذا بالإضافة إلى ما في الحذف من الإيجاز والاختصار للأسلوب ، وإثارة خيال المخاطب ، وتحريك أحاسيسه ؛ ليدرك من البيت ما طُوِيَ ذكره .

وحَذْفُ المبتدأ عند القطع والاستئناف أمر مطرد ، يقول الإمام عبد القاهر : " ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ القطع والاستئناف ، يبدؤون بذكر الرجل ، ويقدمون بعض أمره ، ثم يَدَعُون الكلام الأول ، ويستأنفون كلامًا آخر . وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ " (١) .

وعبر الشاعر بصيغة التفضيل " أَمْضَى " للدلالة على المبالغة في مَضاء الممدوح وشدته في فتكه بأعدائه ، وإهلاكه لهم ، وإجهازه عليهم ، وفي هذا إشارة إلى شدة بأسه ، وقوة نفسه ، وعِظَم إقدامه ، وآزر هذا المعنى التعبير بحرف الجر " في

(١) دلائل الإعجاز / ١٤٧ .

" الدال على الظرفية ، والذي يوحي بأن جيش الممدوح متغلغل في صفوف أعدائه ، ومتوغل فيها قتلًا وفتكًا وتشريدًا .

واللام في لفظة " الفريقين " للدلالة على العهد الذهني ، أي فريق الممدوح وفريق عدوه المعهودان في ذهن كلٍّ من الشاعر والممدوح .

وفي التعبير بلفظة " أقرانه " دلالة على عِظَم شجاعة الممدوح ، وشدة بأسه ، حيث إنه لم يتفوق على من هم أقل منه ، وإنما تفوق على من هم أقرانه وأمثاله شجاعة وبسالة وبأسًا .

وجاء التمييز " ظُبَةً " لبيان وجه مَضاء الممدوح وتفوقه ، وخص الشاعر السيف بالذكر " إشارة إلى شجاعته ودُرْبَته في الحرب ؛ لأن القتال به يقتضي مزيد إقدام للتداني بين الفريقين " [1] .

واللام في كل من " البيض " و " السمر " للدلالة على الجنس ، أي جنس السيوف والرماح وحقيقتهما دون النظر إلى أفرادهما .

والواو في جملة " والبيض هادية والسمر ضُلّال " استئنافية ؛ لأن هذه الجملة منقطعة لفظًا عما قبلها ، حيث تؤسس معنى جديدًا يصلح لأن يكون قاعدة عامة ، ولكنها مرتبطة بجملة " أمضى الفريقين في أقرانه ظُبَةً " من حيث المعنى ، حيث إن جملة الاستئناف هنا كأنها نتيجة للجملة السابقة عليها ، فبين الجملتين علاقة سببية ، هذا بالإضافة إلى أن واو الاستئناف لا تنفك عن العطف ، ولكنها تعطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر ، وتعطف قصة على قصة .

وفي هذه الجملة " والبِيْضُ هادِيَةٌ والسُّمْرُ ضُلّالُ " استعارتان مكنيتان ، حيث شبهت السيوف بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتي بشيء من لوازمه وهو الهداية ، وأثبت للمشبه ، كما شبهت الرماح أيضًا بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتي بشيء من لوازمه وهو الضلال ، وأثبت للمشبه ، وفي هاتين الاستعارتين ضرب

(١) العَرْف الطيب ٢ / ٣٦٩ .

رائع من التصوير ، وبثّ لروح العقل والهداية في السيوف ، وروح الجهل والضلال في الرماح ، وفي إثبات الهداية للسيوف والضلال للرماح لون من التخييل يحرك مشاعر السامع وأحاسيسه ، ويثير عواطفه وخياله ، ويخلع على الأسلوب رونقًا وبهاء ، ويكسوه زينة وجمالًا .

وبين كل من " البِيْضُ هادِيَةُ " و " السُّمْرُ ضُلّالُ " مقابلة بديعة ، حيث قابل المتنبي بين " البيض " و " السمر " ، ثم قابل بين " هادية " و " ضُلّال " ، وفي هذه المقابلة مزيد من تأكيد المعنى وتثبيته في نفس المتلقي ، حيث أتى الشاعر بمعنيين متوافقين ، ثم أتى بعد ذلك بمعنيين آخرين متوافقين أيضًا ، وقابل بين هذه المعاني ؛ لتقر وتثبت وتتأكد في نفس المتلقي ، وتتحدد في ذهنه تحديدًا قويًا ، هذه بالإضافة إلى ما في المقابلة من تزيين وتحسين للأسلوب ، حيث تكون الألفاظ متجانسة ، والجمل متوازنة ، الأمر الذي يحدث أثرًا لفظيًّا له قيمته في وقع الأسلوب وسبكه سبكًا قويًا ، وإظهاره في صورة بديعة تأسر الأسماع ، وتخلب الألباب بكلماتها المتلائمة ، وجملها المتوازنة ، وإيقاعها الأخّاذ (١) .

والتعبير بالمضارع " يُرِيْكَ " في قول المتنبي :

يُرِيكَ مَخْــبَرُهُ أَضْــعَافَ مَنْظَــرِهِ
بَيْـــنَ الــرِّجالِ وَفِيها الْمَاءُ وَالْآلُ

للدلالة على استحضار هذه الصورة العجيبة الغريبة البديعة أمام السامع كأنه يراها تحدث أمام عينيه ، ويشاهدها بناظريه ، وتلك هي صورة الممدوح في الحرب وهو يشق الصفوف ، ويقطع الرؤوس ، ويقطف الأعناق ، وكذلك صورته في السلم وهو يعطي العُفاة ، ويُغْدِق عليهم من معروفه الذي لا ينفد ، والذي يشمل القاصي والداني ، والكبير والصغير.

(١) دراسات منهجية في علم البديع / ٦٦ ، ٦٧ / د / الشحات محمد أبو ستيت / دار خفاجى / قليوبية / الطبعة الأولى / ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م .

وبين كلٍّ من " مخبره " و " منظره " طباق يوضح المعنى ويؤكده ، حيث أفاد أن الممدوح طيّب وحسن في الحالين ، ولكنه في الأولى أحسن ، بل أشد حسنًا ، فمن رآه وجده حسنًا رائعًا ، ومن خَبَرَ حاله ، وسَبَرَ غَوْرَه وجده أحسن وأروع ، وهكذا يظهر الضد حُسْنَ ضده ويُوَضِّحه ، وبضدها تتبين الأشياء .

وفي إضافة " مخبر " و " منظر " إلى هاء الضمير العائد إلى الممدوح دلالة على التعظيم والتشريف ، إذ المضاف يكتسب من المضاف إليه صفته ، فمخبر الممدوح عظيم وشريف ، ومنظره عظيم وشريف أيضًا ، إذن فقد جمع بين الحسنيين ، وحاز الفضيلتين .

وفي التعبير بلفظة " أضعاف " وتنكيرها دلالة على التكثير والتعظيم ، فالممدوح يُرِي من حاله مَنْ اختبره وجرّبه صورًا من الشجاعة والبأس ، وأفانين من البطولة والبسالة ، وأحوالًا مختلفة من الكرم والسخاء ، وأشكالًا متنوعة وكثيرة من الجود العطاء .

وفي قول المتنبي : " بين الرجال " تتميم [1] ، إذ المعنى في قوله " يُرِيْك مَخْبَرُه أَضْعاف مَنْظَره " قد تَمّ ، ولا يُوْهِم خلاف المقصود ، وجاء قوله : " بين الرجال " لإفادة المبالغة في المدح ، حيث إن إظهار الممدوح لمن يَخْبُر حاله ويَسْبُر غَوْره أضعاف ما ظهر له منه في ظاهر حاله أمر محمود ، وأما أن يكون ذلك بين الرجال وفي وسط الأَضْراب والنظراء والأَكْفاء فذلك أبلغ في المدح ، وأحسن في الثناء ، وأفضل في الإطراء .

وعبر الشاعر بحرف الجر " في " الدال على الظرفية في قوله عن الرجال : " وفيها الماء والآل " بدلًا من حرف الجر " من " الدال على التبعيض للدلالة على شدة تمكن وجود هذين الصنفين في الرجال .

---

(١) التتميم : هو أن يُؤْتَى في كلام لا يُوْهِم خلاف المقصود بفضلة تفيد نكتة . الإيضاح ١ / ٣٣٠ .

وفي لفظتي " الماء " و " الآل " استعارتان تصريحيتان ، حيث شبه الصنف الأول من الرجال – وفي مقدمته ، وعلى رأسه الممدوح – بالماء من حيث الحقيقة والوجود والنفع ، ثم حذف المشبه ، وصرح بلفظ المشبه به ، كما شبه الصنف الثاني من الرجال بالآل – أي السراب — من حيث الخداع وعدم النفع ، ثم حذف المشبه ، وصرح بلفظ المشبه به ، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وتكمن بلاغة هذه الاستعارة في ذلك التصوير الرائع البديع ، هذا بالإضافة إلى تحريك المشاعر ، وإثارة الوجدان ، وتنشيط الأذهان ، وتوكيد المعنى وتفخيمه ، ولا يخفى ما في الاستعارة عامة من الإيجاز في اللفظ ، والاختصار في العبارة ، حيث إنها عبارة عن تشبيه حذف منه أحد ركنيه ، وما فيها كذلك من دعوى الاتحاد والامتزاج بين كلٍّ من المشبه والمشبه به ، حيث إنها تجعلهما كالشيء الواحد ، وذلك بخلاف التشبيه ؛ لأنه مهما زاد في المبالغة فإن ذكر الطرفين إيذان باختلافهما ، واعتراف بتباينهما .

وبين هاتين اللفظتين " الماء " و " الآل " طباق يبرز المعنى ويوضحه ويؤكده ، حيث إن كل طرف من طرفي الطباق يُبَيِّن ويبرز حقيقة الطرف الآخر ، هذا بالإضافة إلى أن الطباق يظهر المعنيين متمايزين مختلفين ، فهذا صنف من الرجال له حقيقة في وجوده ، ويرجى نفعه ، وذلك الصنف كالماء ، وذاك صنف آخر من الرجال ليس له أصل ، ولا حقيقة لوجوده ، ولا يرجى نفعه ، وهذا الصنف كالسراب ، ولا يخفى ما في الجمع بين الضدين من تناسب وترابط للأسلوب ، وتمكين للمعنى في نفس المتلقي ، حيث إن السامع حينما يسمع الطرف الأول يكون مهيئًا ومتشوقًا ومترقبًا لمعرفة الطرف الثاني ، فإذا جاءه الطرف الثاني مع هذا التهيؤ والتشوق والترقب تمكن واستقر في نفسه ، وثبت وتأكد لديها .

و" قد " في قول المتنبي :

وَقَــدْ يُلَــقِّــبُــهُ الْمَجْنُونَ حَاسِدُهُ

إِذا اخْــتَلَطْنَ وَبَــعْضُ الْعَــقْلِ عُقَّالُ

للدلالة على التحقيق ، أي قد لقّبه حاسده بالمجنون حسدًا إذا اختلطت السيوف والرماح لدى الحرب ، ويحتمل أن تكون للدلالة على التوقع ، أي يتوقع أنه قد يلقبه بالمجنون حاسده الذي لا يلحقه ، وظالمه الذي لا ينصفه إذا نَشِبَتْ الحربُ ، وحَمِيَ وَطِيْسُها .

وعبر بالمضارع " يُلَقِّب " للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن تلقيب حاسده له بالمجنون أمر حادث ومتجدد باستمرار شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن .

واللام في " المجنون " للدلالة على العهد الذهني ، أي المجنون – وهو الممدوح – المعهود في ذهن الشاعر ، حيث لم يكن الممدوح حاضرًا أمامه وقت الإنشاد ، وإنما هو حاضر في ذهنه وخياله .

وفي التعبير بقوله : " حاسده " إشارة إلى أن الممدوح لم يُلَقَّب بلقب " المجنون " سبّة وعيبًا ، وإنما لُقِّبَ بذلك حسدًا من قِبَل حاسده الذي لا يلحقه ، وظالمه الذي لا ينصفه ؛ لما يريان من شدة إقدامه على الطعن والضرب ، وعِظَم اقتحامه العقبات والخطوب .

وعبر المتنبي بـــ " إذا " الشرطية للدلالة على أن شرطها مُتَيَقَّن حصوله ، ومجزوم بوقوعه ، أو مُرَجَّح حدوثه ، وفي هذا دلالة على أن الممدوحَ فاتِكٌ مِقْدامٌ ، ولَهِجٌ جَسُورٌ ، وليس هيّابًا ، وأن خوضه للمعارك أمر معتاد ، وليس غريبًا ولا مستغربًا .

وفي هذه الجملة الشرطية " إذا اختلطن " إيجاز بحذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه ، والتقدير " إذا اختلطن فقد يلقبه المجنونَ حاسدُه ، وفي حذف ما

يدل السياق عليه ضرب من الإيجاز والاختصار ، ولون من الاحتراز عن العبث في الظاهر ، وتخليص للأسلوب مما يثقل كاهله ، ويؤدي به إلى الترهل .

ويحتمل أن تكون " إذا " هنا ظرفية وليست متضمنة معنى الشرط ، أي قد يُلَقِّب الممدوحَ حاسدُه بالمجنون في وقت اختلاط السيوف والرماح .

والتعبير بالفعل " اختلط " يشير إلى تداخل السيوف في الرماح ، واشتداد المعركة ، واشتعال أُوارها ، واضطرام نارها ، وحَمْي وطيسها ، الأمر الذي يدعو غالبًا إلى التقاعس أو الفرار ، بينما نجد الممدوح فارسًا شجاعًا ومقدامًا ، وبطلًا مغوارًا وكَرّارًا .

والواو في قوله " وبعض العَقْل عُقّال " استئنافية ؛ لأنها استؤنف بها كلام جديد منقطع عما قبله من ناحية الصناعة الإعرابية ، فهي تدل على انتقال المشهد ، واستئناف كلام جديد ، والجملة المستأنفة هنا منقطعة عما قبلها لفظًا ، ومرتبطة به معنى ، حيث إنها كالبرهان الدال على استجادة واستحسان تلقيب الممدوح بـــ " المجنون " ، وهكذا التشبيه حينما يقع في أعقاب المعاني ، فإنه يوضحها ، ويؤكدها ، ويُثَبِّتها ، حيث يكون كالدليل عليها .

وفي هذه الجملة الاستئنافية تشبيه بليغ ، حيث شبه المتنبي العَقْل في وقت الاحتياج إلى الكَرّ والإقدام والاقتحام بالعُقّال بجامع الإضرار ، وكون كلٍّ منهما يمنع صاحبه من التَّهَجُّم على الحرب ، ويكون سببًا من أسباب ضعفه وتباطئه وتقاعسه .

وجاء الشاعر هنا بهذا التشبيه محذوف الوجه والأداة للدلالة على المبالغة في دعوى اتحاد المشبه والمشبه به حتى كأنهما شيء واحد ، فحذف الوجه يشعر ظاهره بالتعميم في وجه الشبه ، ويوهم اشتراك المشبه والمشبه به في جميع الصفات لا في الصفة المقصودة وحدها ، وحذف الأداة يفيد دعوى اتحاد الطرفين ، ويوهم أن المشبه والمشبه به شيء واحد ، وأن الكلام على الحقيقة لا على التشبيه ،

وكأن المتنبي جعل بعض العَقْل يجمع كل صفات العُقّال ، وليس شبيهًا به ، ولا يخفى ما في حذف كلٍّ من الوجه والأداة من الاختصار والإيجاز للأسلوب .

وفي هذا البيت لون بديعي رائع وهو التلطّف [١] ، حيث تلطف الشاعر إلى لقب الممدوح ، وهو " المجنون " الذي كان يُذَمُّ به ، " وفَسَّرَهُ تفسيرًا أذهب قُبْحَه ، وحَسَّنَ عند المنكر له أن يتلقّب بمثله " [٢] ، وجعله أحسن ألقابه ، وذلك بتعقيب البيت بهذا التشبيه الرائع ، وهذا من فرائد المتنبي وبدائعه ، يقول ابن جني : " هذا من محاسن المتنبي ، وما سمعنا أن أحدًا فَضَّل الجنون على العَقْل فجاء به هكذا غيره ، ولقد بالغ في التصريح في أن لَقَّبه المجنون ، ثم تخلّص من ذلك أحسن تخلص " [٣] .

وهكذا تجلّت قوة بيان أبي الطيب ، وبراعة تصويره ، وروعة إبداعه في تحسين القبيح ، وتجميل الهجين ، ولله درّ ابن الرومي حيث قال :

فـــي زُخْرُف القَوْلِ تَرْجِيحٌ لقائِلِهِ
والحَقُّ قَدْ يَعْتَـــرِيهِ بَـــعْضُ تَغْـــيِيرِ
تَقُولُ : هذا مُجاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ
وإِنْ تَعِبْ قُلْتَ : ذا قَيْءُ الزَّنابِيرِ
مَـــدْحًا وذَمًّا ومـــا جَاوَزْتَ وَصْفَهما
سِـــحْرُ البَيانِ يُـــرِي الظَّلْماءَ كالنُّورِ [٤]

(١) التلطُّف : هو أن تتلطف للمعنى الحسن حتى تُهَجِّنَه ، والمعنى الهجين حتى تُحَسِّنَه . كتاب الصناعتين / ٤٢٧ / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م .
(٢) التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٨٣ ، ٢٨٤ .
(٣) الفَسْر ٣ / ٢٤٥ .
(٤) ديوان ابن الرومي ٢ / ١٦٩ / من البسيط / شرح : أحمد حسن بَسَج / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الثالثة / ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م .

وعبر المتنبي بالمضارع " يَرْمِي " في قوله :

يَرْمِـــي بِهَـــا الْجَيْشَ لا بُدٌّ لَهُ وَلَهَا
مِـــنْ شَقِّهِ وَلَوَ انَّ الْجَـــيْـــشَ أَجْـــبَالُ

للدلالة على استحضار هذه الصورة العجيبة الغريبة البديعة – وهي صورة رمي الممدوح جيش عدوه بالسيوف والخيل – أمام المتلقي كأنه يراها تحدث أمام عينيه ، ويشاهدها تقع أمام ناظريه ، ويحتمل أن يكون التعبير بالمضارع هنا أيضًا للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن .

والباء في قوله : " بها " للدلالة على الاستعانة ، أي أن الممدوح يرمي جيش عدوه مستعينًا بهذه الآلة ، وهي تلك السيوف والخيل .

وضمير الهاء في " بها " يحتمل أن يكون للظُّبة – أي السيوف – ويحتمل أن يكون للخيل ، ويحتمل أن يكون للممدوح ، أي يرمي بنفسه الجيش الذي ناصبه العَداء ، وعلى اعتبار أن الضمير هنا للممدوح يكون هذا البيت عذرًا لعدوه عن تلقيبه له بالمجنون ، يقول ابن جني : " كأن في هذا البيت ضربًا من الاعتذار لعدوه المُلَقِّبه بالمجنون مع الهُزْء منه ؛ لأنه يُرِي من إقدامه وتَعَجْرُفه في الحرب ورَمْيه بنفسه في المهالك ما يُبْعِدُه عن الحِلْم عنده ، فلذلك لَقَّبَه مجنونًا " [1] .

واللام في لفظة " الجيش " للدلالة على الجنس ، أَيْ يرمي بنفسه وهذه السيوف وتلك الخيل أَيّ جيش كان ، فهذا ديدنه ودأبه مع أيّ جيش أيًّا كانت قوته ، وأيًّا كان خطره .

واستخدم المتنبي أداة النفي " لا " النافية للجنس لاستغراق نفي الحكم عن كل أفراد الجنس ، هذا بالإضافة إلى تنكير اسمها " بُدّ " ، والنكرة في سياق النفي تدل على العموم ، أي أن الممدوح إذا رمى جيش عدوه فهو مشقوق ومهزوم وهالك لا محالة .

(١) الفَسْر ٣ / ٢٤٦ .

وفي قوله : " شَقِّه " استعارة تصريحية ، حيث شبهت الهزيمة التي يلحقها الممدوح وجيشه بجيش عدوه بالشَّقّ – بمعنى الصَّدْع – ثم حذف المشبه ، وصرح بلفظ المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، وفي هذا ضرب رائع من التصوير ، كما فيه أيضًا دلالة على أن الممدوح حينما يرمي جيش عدوه يفتك به فتكًا ذريعًا ، ويهلكه إهلاكًا مدمرًا لا يبقي ولا يذر .

والواو في قوله : " ولَوَ انَّ الجَيْشَ أَجْبالُ " عاطفة لإشراك ما بعدها فيما قبلها ، وما بعدها هنا معطوف على ما قبلها ؛ لئلا يُتَوَهَّم أن الكلام ليس على العموم ، أي لا بدّ للممدوح وسيوفه وخيله من شَقّ جيش العدو على كل حال ولو أن هذا الجيش أجبال ، وإنما خُصَّتْ هذه الحالة بالذكر نظرًا لصعوبتها ، حيث يكون جيش العدو مثل الجبال قوةً وثباتًا ، وقد يظن البعض استبعادها ، فجاءت هذه الواو العاطفة المدخلة ما بعدها فيما قبلها لإدخال هذه الحالة نصًا في العموم ، وفي هذا دلالة على قوة الممدوح وجيشه وشجاعتهما وثباتهما وإصرارهما حتى الانتصار مهما كانت قوة جيش العدو .

و " لو " هنا باقية على شرطيتها ، ولكن جوابها محذوف لدلالة الواو العاطفة عليه ؛ لأنها تَرُدّ الكلام الداخلة عليه على أوله ، والتقدير : " لا بدّ له ولها من شَقِّه ، ولو أن الجيش أجبال لشَقّاه " ، وفي هذا الحذف لون من الإيجاز والاختصار للأسلوب .

واللام في " الجيش " في هذه الجملة الشرطية للدلالة على العهد الذكري ، وذلك لسبق ذكره قبل ذلك في الشطر الأول من هذا البيت .

وفي تنكير لفظة " أجبال " دلالة على التعظيم ، أي لا بدّ للممدوح وجنوده من شَقّ جيش عدوه مهما كانت قوته ، ومهما بلغت عظمته ، حتى لو كانت مثل الجبال في القوة والثبات والعِظَم والضخامة ، وفي هذا إشارة إلى دُرْبَة الممدوح

على القتال ، ومعرفته بطرق النصر ، الأمر الذي يجعله يُصِرّ على تحقيقه مهما بلغت قوة جيش عدوه وثباته .

وعبر المتنبي بأداة الشرط " إذا " في قوله :

إِذا الْعِدَى نَـــشِبَتْ فِيهِمْ مَخالِبُهُ

لَمْ يَجْـــتَـــمِعْ لَهُمُ حِلْـــمٌ وَرِئْـــبَالُ

للدلالة على أن شرطها – وهو نشوب مخالب الممدوح في عِداه ، وحينئذ لم يجتمع لهم حِلْم ورِئبال – أمر محقق الوقوع ، ومجزوم بحصوله ، ومقطوع بحدوثه .

واللام في " العِدَى " للدلالة على الاستغراق ؛ ليشمل ذلك كل عدو من أعدائه بَعُدَ ذلك العدو أو قَرُبَ ، وقلّ أو كَثُرَ .

وفي التعبير بالفعل " نَشِبَ " دلالة على شدة تمكن مخالب الممدوح من أعدائه ، حيث يظفر بهم ، ويتمكن من أعناقهم ، وتملأ رهبته قلوبهم ، وهنا يزايلهم الحِلْم ، ولا يجتمع لهم حِلْم ورِئبال .

ويؤازر التعبير بالفعل " نَشِبَ " في الدلالة على تمكن الممدوح من أعدائه التعبير بحرف الجر " في " الدال على الظرفية ، فمخالب الممدوح لم تتعلق بهم في الظاهر ، وإنما تعلقت بقلوبهم ، الأمر الذي أفقدهم رشدهم ، وخلع أفئدتهم ، وأطار صوابهم ، حيث لم يجتمع لهم في ذلك الموقف أسد تُحْذَرُ عاديته ، وحِلْم تُؤْمَنُ بادرته .

وفي قوله : " مخالبه " استعارة مكنية ، حيث شبه الممدوح بأسد ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو المخالب ، وأثبت للمشبه ، وفي هذه الاستعارة روعة في التصوير ، حيث صورت الممدوح بأسد له مخالب تَنْشَب في أعدائه ، هذا بالإضافة إلى ما فيها من تحريك للمشاعر ، وإثارة للوجدان والخيال ، واختصار في اللفظ ، وإيجاز في العبارة ، وتوكيد وتفخيم للمعنى ، وقوة في

التأثير والإقناع ، ولا يخفى ما في إثبات المخالب للممدوح من تخييل يثير عاطفة المخاطب ، ويكسو الكلام حسنًا وبهاء .

وجاء التعبير بالمضارع " يجتمع " للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، إذ نفي اجتماع الحِلْم والرِئبال لأعداء الممدوح كلما نشبت فيهم مخالبه أمر متجدد حالًا بعد حال ، وآنًا بعد آن .

ويعد هذا البيت تأكيدًا لتحسين لقب الممدوح وتفضيله على العقل ، حيث يعتبر عذرًا آخر لعدو الممدوح عن تلقيبه له بالمجنون ، يقول الواحدي : " هذا كأنه عذر للذي يلقبه بالمجنون من أعدائه ؛ لأنهم يرونه كالأسد في الشجاعة ، والأسد لا يوصف بالحِلْم ، كذلك هذا الرجل يَبْعُدُ عنه الحِلْم إذا قاتل الأعداء " (١) ؛ لأن الاستسهال للموت ، والإقدام على الحرب ليس من طريق الحِلْم ، وفي هذا دلالة على المبالغة في قوة شجاعة الممدوح ، وسرعة إقدامه دون أدنى تَهَيُّبٍ أو تَرَدُّدٍ .

ويحتمل أن يكون المتنبي قد رمز بالحِلْم هنا للتدبير ، وبالرِّئْبال للشجاعة ، ويكون قد نفى عن أعدائه أن يكون لهم تدبير وشجاعة في حالة نشوب مخالبه فيهم، يقول ابن القَطّاع : "إذا نَشِبَتْ مخالبه في قوم ذهب عنهم التدبير والشجاعة " (٢) .

ويمكن الجمع بين كلامي الواحدي وابن القطاع بأن الممدوح حينما يَكُرّ ويَهْجُم ويَنْقَضّ على أعدائه يكون كالأسد ، فيزايله الحِلْم ؛ لأن الحِلْم والأسد لا يجتمعان ، ويذهب عن أعدائه التدبير والشجاعة ، حيث يَنْقَضّ عليهم انقضاض الأسد الهَصُور على فريسته ، فيأتيهم منه ما لم يكونوا يحتسبون ، وما هم عن مقاومته فضلًا عن رَدّه عاجزون .

(١) شرح الواحدي / ٧٠٩ .
(٢) التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٨٤ .

وجاء التعبير بالمضارع " يَرُوع " في قول المتنبي :

يَرُوعُـــهُمْ مِنْـــهُ دَهْرٌ صَـــرْفُهُ أَبَداً

مُجـــاهِرٌ وَصُرُوفُ الدَّهْـــرِ تَـــغْـــتالُ

للدلالة على التجدد الاستمراري ، أي أن ترويع الممدوح أعداءه ، وتخويفه لهم أمر متجدد باستمرار ، ويحدث شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، وحينًا بعد حين ، ويحتمل أن يكون التعبير بالمضارع هنا لاستحضار هذه الصورة العجيبة الغريبة – وهي صورة ترويع الممدوح أعداءه ، وتخويفه إياهم – أمام المخاطب كأنه يراها تقع أمام عينيه ، ويشاهدها تحدث أمام ناظريه .

وفي جملة " يَرُوْعُهُمْ منه دَهْرٌ " تجريد بـــ " من " التجريدية الداخلة على المنتزع منه ، حيث انتزع من الممدوح دهر هو مثل الممدوح في قوته وقدرته علي أعدائه ، وإهلاكه لهم ، وإنفاذ أمره فيهم ، وتكمن بلاغة هذا التجريد في المبالغة في وصف الممدوح بالقوة والإهلاك وإنفاذ أمره في أعدائه ، وأنه قد بلغ في الاتصاف بهذه الصفات مبلغًا عظيمًا إلى درجة أن صار يفيض بها على غيره ، وأن ينتزع منه أمر آخر مثله في تلك الصفات مبالغة في كمالها فيه ، هذا بالإضافة إلى ما في التجريد من تصوير وتخييل ، وتفنن في الأسلوب ، وتنويع وتلوين في الصياغة ، وتوسيع في الكلام ، الأمر الذي يؤدي إلى إثارة العاطفة والخيال ، وتحريك المشاعر والوجدان ، وتنشيط الأذهان ، وتنبيه العقول ، وبهذا يقع من النفس موقعًا حميدًا ، فتتلقاه النفس بأحسن القبول .

وجاء الشاعر بلفظة " دَهْر " نكرة للدلالة على التعظيم ، فهو دهر عظيم في صروفه ونوائبه وحَدَثانه ، فلا يقادر قدره ، ولا يجابه أمره ، ولا يقاوم صَرْفه .

وبعد أن شبه المتنبي عن طريق التجريد الممدوح في قدرته على أعدائه وإنفاذ مراده فيهم وإحاطته بهم بالدهر تعظيمًا لشأنه ، وتفخيمًا لأمره ، بالَغَ وفَضَّلَ الممدوح على الدهر ، وجعل له مَزِيَّة بَيِّنة ، وزيادة ظاهرة من حيث إن الممدوح

لا يَغُول الأعداء إلا مجاهرة ، ولا يروعهم أبدًا بحروبه وغاراته إلا علانية ، ولا يطرقهم إلا وهم يعلمون شجاعةً ومغالبةً ، بينما الدهر يغتال بصروفه ، ولا يؤذن بخطوبه ، ويأخذهم من حيث لا يعلمون ، ويطرقهم من حيث لا يدرون .

وعبر الشاعر بظرف الزمان " أبدًا " للدلالة على استغراق الزمان في المستقبل ، أي أن مجاهرة الممدوح أعداءه بالحروب والغارات شجاعةً ومغالبةً أمر ثابت ودائم ومستمر ، ويؤازر هذا المعنى التعبير بالخبر " مجاهر " بصيغة الاسم الدال على الثبوت والدوام .

وفي قوله : " صروف الدهر تغتال " استعارة مكنية ، حيث شبه الدهر بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو الاغتيال ، وأثبت للمشبه ، وفي هذه الاستعارة ضرب من التصوير الرائع ، والتشخيص البديع ، حيث صورت الدهر بإنسان ، وبَثَّتْ فيه روح الحركة والحياة ، وأظهرته في صورة المحسوس ، وفي إثبات الاغتيال للدهر لون من التخييل يحرك وجدان المخاطب ، ويثير مشاعره ، ويمتع عاطفته .

ونلحظ هنا أن المتنبي أخبر عن صَرْف الممدوح بصيغة الاسم " مجاهر " الدال على الثبوت والدوام ، بينما أخبر عن صروف الدهر بصيغة الفعل " تَغْتال " الدال على التجدد الاستمراري ، أي أن مجاهرة الممدوح أعداءه بالحروب والغارات أمر ثابت ودائم ، وصفة ملازمة له ، بينما اغتيال صروف الدهر أمر يحدث على سبيل التجدد الاستمراري شيئًا فشيئًا وحالًا بعد حال ، وحينًا بعد حين .

وفي التعبير بالفعل " تغتال " بصيغة الافتعال بدلًا من " يَغُول " دلالة على أن تصرف صروف الدهر يأتي انتزاعًا بجهد وتكلف ، بينما تصرف الممدوح يأتي سجيّة وطبعًا .

ولا يخفى ما بين كلٍّ من " مجاهر " و " تغتال " من طباق خفيّ ، حيث طابق الشاعر بين المجاهرة – وهي من لوازم الشجاعة والمغالبة – التي أثبتها لصَرْف الممدوح والاغتيال – وهو الأخذ على غِرّة ، والإهلاك على غفلة – الذي أثبته لصروف الدهر ، والطباق هنا خَفِيّ ، حيث إن الاغتيال ليس ضدًا للمجاهرة ، وإنما هو يستلزم الإخفاء المقابل للمجاهرة ، وفي هذا الطباق إيضاح للمعنى وتوكيد له في نفس المتلقي ، ولا سيما أنه أتى سجيّة ومطبوعًا ، وليس متكلفًا ولا مصنوعًا .

وفي إسناد الفعل " أنال " إلى الفاعل المجازي " تَقَدُّم " في قول المتنبي :

أَنَالَهُ الشَّرَفَ الْأَعْلَى تَقَدُّمُهُ فَمَا الَّذِي بِتَوَقِّي مَا أَتَى نَالُوا

مجاز عقلي علاقته السببية ، حيث أسند الفعل إلى سببه وهو التقدم ، ولم يسند إلى الفاعل الحقيقي ، وفي هذا المجاز تأكيد لسببية التقدم وأهميته في تمكين الممدوح من الشرف الأعلى ، وتحقيقه له ، وإيصاله إليه حتى كأنه هو الفاعل الحقيقي للإنالة ، وفي هذا ضرب من المبالغة ، وإثارة للخيال ، وإيجاز في اللفظ ، وتلوين في العبارة ، الأمر الذي يجعل الأسلوب أعذب لفظًا ، وأحسن موقعًا ، وأكثر فائدة ، وأغزر نادرة .

وعرّف " الشرف " باللام للدلالة على الجنس ، أي جنس الشرف وحقيقته ، ووصف بـــ " الأعلى " للدلالة على المبالغة في عظمة هذا الشرف الذي ناله الممدوح ، وعلو منزلته ، وسمو درجته ، وفي هذا الوصف بيان لنوع الشرف ، ومبالغة في المدح والثناء .

وبعد أن أفاد الشاعر في الجملة الأولى أن تقدم الممدوح في الحرب ، وإقدامه على القتال ، وجرأته عليه ، واقتحامه الخطوب الجسام أناله من الشرف أعلى منازله وأفضلها ، ومن السلطان أرفع المراتب وأحسنها استأنف الكلام بقوله :

" فما الذي بتوقي ما أتى نالوا ؟ " ؛ ليبين ما ناله أعداؤه بإحجامهم عما أقدم هو عليه من المهالك والخطوب ، وبتوقيهم ما يأتيه هو من المخاوف والأهوال .

والاستفهام في هذه الجملة الاستئنافية للإنكار والتعجب ، حيث أنكر المتنبي على أعداء الممدوح تفويتهم المجد والشرف والسؤدد على أنفسهم بسبب تأخرهم وتوقيهم ما يأتيه الممدوح من الأهوال ، وإشفاقهم على أنفسهم مما يخوضه من غَمَرات ، ويقتحمه من عقبات ، وتَعَجَّبَ من توقيهم الذي حال بينهم وبين تحقيق الشرف الأعلى ، ونيل السيادة العظمى .

ونلحظ هنا أن المتنبي قال : " بتوقي ما أتى " ، ولم يقل – مثلًا – : " بترك ما أتى " ، وفي هذا دلالة على أن ما أتاه الممدوح أمر عظيم وخطير وعجيب لا قِبَلَ ولا طاقة لأعدائه به ، فهو أمر يعد إقبالهم عليه خطرًا على أنفسهم نظرًا لضعف طاقتهم ، وعجز قدرهم .

وبين كلٍّ من " تَقَدُّم " و " تَوَقِّي " طباق يظهر المعنى ويوضحه ، حيث أوضح ما عليه الممدوح من جسارة وبسالة وإقدام ، وما عليه أعداؤه من تَوَقٍّ وتأخر وإحجام ، ولا يخفى ما أضفاه الطباق على الأسلوب من رونق وبهجة وتناسب وترابط وتلاحم ، حيث إن المعاني يستدعي بعضها بعضًا ، و الضد أكثر خطورًا على البال عند ذكر ضده .

واستخدم المتنبي أداة الشرط " إذا " في قوله :

إِذا الْمُلُوكُ تَحَلَّتْ كَانَ حِلْيَتَهُ مُهَنَّدٌ وَأَصَمُّ الْكَعْبِ عَسَّالُ

للدلالة على أن تحلي الملوك وزينتها أمر متيقن ، ومحقق الوقوع ، ومقطوع بحدوثه ، ومجزوم بحصوله ، إذ من دأب الملوك وعادتهم وديدنهم التحلي بالتيجان والأسورة ، والتزين بحسن الملبس والمظهر .

وخص المتنبي " الملوك " بالذكر ، لأن الملوك جبلوا على ذلك ، ولعل المتنبي كان يُعَرِّض هنا بكافور الإخشيدي ، إذ كان عليه التاج متحليًّا به ، بينما تحلى

الممدوح بالسيف المهند والرمح الأصمّ المهتزّ الذين هما آلة الشجاعة ، ومفتاح باب الرئاسة .

واللام في هذه اللفظة " الملوك " تحتمل أن تكون للدلالة على الجنس دون تحديد فرد بعينه ، وتحتمل أن تكون للعهد الذهني ، أي المعهود في ذهن كلٍّ من الشاعر والممدوح ، وذلك إذا كان قَصْد المتنبي هنا التعريض بكافور ، حيث كان يلبس التاج .

وفي جملة " إذا الملوك تحلت " إيجاز بالحذف ، حيث حذف هنا الجملة المُفَسَّرة لدلالة جملة " تحلت " المُفَسِّرة عليها ، والتقدير : " إذا تَحَلَّتْ الملوكُ تَحَلَّتْ " ، وفي هذا الحذف لون من الإيجاز والاختصار للأسلوب ، ونوع من الاحتراز عن العبث في الظاهر .

وفي جملة " كان حليته مهنّد وأصمّ الكعب عسّال " كناية عن عصاميّة الممدوح ، حيث ساد بشرف نفسه ، واحتاز الرئاسة مغالبة بسيفه ، واستحقها لشجاعة ذاته ، ولم يأخذها اختلاسًا ، ولم ينلها تملّقًا ولا تسلّقًا ، ولم تأته وراثة .

وفي هذه الجملة إيجاز بالحذف ، حيث حذف منها الموصوف ، والتقدير : " كان حليته سيف مهنّد ورمح أصمّ الكعب عسّال " ؛ وذلك لشيوع الصفة وشهرتها هنا ، والصفة لشيوعها وشهرتها قد يكتفى بها عن الموصوف ، وكأنها أصبحت علمًا عليه .

واختار المتنبي المهنّد من السيوف ؛ لأن السيف المهنّد – وهو المطبوع من حديد الهند – من أجود أنواع السيوف وأفضلها قوة ومضاء لصلابته ورِقّة ظُبَته ،

ولا سيما إذا كان بيد الممدوح الفارس المقدام المغوار الذي لقّبه حاسده عند اقتحامه الخطوب والأهوال بالمجنون !!

وفي وصف المتنبي الرمح بهاتين الصفتين : " أصمّ الكعب " و " عَسّال " دلالة على جودة هذا الرمح ، وعِظَم قيمته ، ونفاسة مَعْدِنه .

وجمع الشاعر لرمح الممدوح هذين الوصفين بدون عطف للدلالة على اجتماعهما في الرمح ، وأن اجتماعهما قد بلغ فيه الغاية والكمال ، حتى كأنهما صفة واحدة .

وفي صياغة المعنى في أسلوب شرط ضرب من التشويق للمخاطب ، حيث إن المخاطب حينما يستمع إلى الشرط يتطلع ويتشوق إلى معرفة الجواب ، ويظل مترقبًا له حتى يقف عليه ، فيتمكن في ذهنه ، هذا بالإضافة إلى ما يضفيه أسلوب الشرط العبارة من ترابط وتشابك لارتباط الشرط بجوابه وافتقاره إليه .

وعَرَّفَ المتنبي الممدوح بكنيته " أبو شجاع " في قوله :

أَبُو شُجاعٍ أَبُو الشُّجْعانِ قاطِبَةً هَوْلٌ نَمَتْـــهُ مِنَ الْهَيْجاءِ أَهْــوَالُ

للدلالة على التشريف والتفخيم والتعظيم ، ويجوز في قوله : " أبو شجاع " أن يعرب خبرًا لمبتدأ محذوف ، والتقدير هو أبو شجاع ، ويكون الشاعر قد طوى ذكر المبتدأ هنا ؛ لأنه أراد أن يقطع المعنى السابق مستأنفًا معنى آخر ، وبنى كلامه على الحذف لقوة الدلالة على المحذوف ، وإظهارًا لقوة انفعاله وإحساسه بهذا المعنى المستأنف ، ورغبة منه في تمييز المعاني وظهورها أجناسًا مختلفة ، وصنوفًا متباينة ، وألوانًا متغايرة ؛ لأن حذف المبتدأ يجعل الجملة المستأنفة مستقلة بمعانيها غير مرتبطة بما قبلها تمييزًا لمعانيها عن المعاني السابقة ، الأمر الذي يؤذن بالمبالغة في المدح ، هذا بالإضافة إلى ما في الحذف من " تصفية للعبارة ، وترويق للأسلوب من ألفاظ يفاد معناها بدونها لدلالة القرائن عليها ... لأن ذكر الكلمة التي يدل عليها سياق ثقل ، وترهل في الأسلوب ... ومقصد آخر نراه وراء كل

حذف هو بعث الفكر ، وتنشيط الخيال ، وإثارة الانتباه ؛ ليقع السامع على مراد الكلام ، ويستنبط معناه من القرائن والأحوال " (١) .

ويجوز في قوله : " أبو شجاع " وجه آخر ، وهو أن يعرب مبتدأ ، ويكون قوله : " أبو الشجعان " خبره ، ويكون المعنى أن أبا شجاع بكنيته التي هي صفة ثابتة له ، وحقيقة ظاهرة برياسته فيهم ، وعلوّه عليهم هو أبو الشجعان حقيقة ؛ لأنه قدوتهم وسيّدهم ، ولأنهم كلهم دونه .

واللام في لفظة " الشجعان " للدلالة على الاستغراق ، أي أن الممدوح هو أبو الشجعان كلهم ، وأكد الشاعر هذا الاستغراق بالحال " قاطبة " ، أي جميعًا ؛ ليرفع توهم عدم إرادة العموم والشمول في ذلك الاستغراق .

وبعد أن ذكر الشاعر أن ممدوحه أبا شجاع أبو الشجعان قاطبة استأنف الكلام ، وأتى بفكرة أخرى ، وأفاد معنى آخر بقوله : " هَوْلٌ نَمَتْهُ من الهَيْجاءِ أَهْوالُ " ، وبنى كلامه على حذف المبتدأ أيضًا ، والتقدير " هو هَوْل " رغبة منه في تمييز المعاني وظهورها أجناسًا مختلفة ، ومبالغة في المدح والثناء ، ولا يخفى ما في هذه اللفظة من إيحاءات ودلالات تثير في النفس رُعْبًا ووَجَلًا ، وتلقي فيها خوفًا وفزعًا ، ولا سيما حينما يباغت سمع المخاطب بها بدون ذكر المبتدأ ، هذا بالإضافة إلى ما في تنكيرها من الدلالة على التفخيم والتعظيم ، فهو هول عظيم في أعين الأعداء ، وهذا أبلغ في المدح ، وأعظم في الثناء .

ويجوز في هذه اللفظة " هَوْلٌ " أن تكون خبرًا ثانيًا لـــ " أبو شجاع " على اعتبار أنه مبتدأ ، و" أبو الشجعان " خبر ، ويكون هذا من باب تعدد الخبر بدون عطف للمبتدأ الواحد ، وفي هذا التعدد بدون عطف دلالة على وجود هذين الخبرين مجتمعين في الممدوح ، كما فيه دلالة أيضًا على أن اجتماعهما فيه قد بلغ الغاية والكمال ، وكأنهما خبر واحد .

---

(١) خصائص التراكيب / ١٦٠ / د / محمد أبو موسى / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الرابعة / ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م .

ويجوز فيها أيضًا أن تكون بدلًا من " أبي الشجعان " ويكون الغرض من ذلك الإبدال هو الإيضاح بعد الإبهام ، والتوكيد بعد الإخبار ، حيث أوضحت المراد من قول الشاعر " أبو الشجعان " ، وبيّنت أنه يريد بأبي الشجعان ذلك الهول العظيم الذي يملأ قلوب أعدائه رَوْعًا ورُعْبًا ، ويثير فيها الجزع والفزع ، وأكدت المعنى لدلالة البدل على المبدل منه .

وفي قوله " نَمَتْه من الهَيْجاء أَهْوالُ " دلالة على المبالغة في وصف الممدوح بالشجاعة والفروسية ، حيث إن أهوال الحرب هي التي نَمَتْه وربَّتْه ، حيث نشأ فيها صغيرًا ، فصارت له كالغذاء ، ونَمَتْه منها أهوال جسام ، وخطوب عظام لا يعهد مثلها ، الأمر الذي جعل الشجعان كلهم دونه ، وجعلهم في كل خَطْب وعظيمة يتقون به ويقدمونه .

وفي إثبات النَّماء للأهوال استعارة مكنية ، حيث شبهت الأهوال بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو النَّماء ، وأثبت للمشبه ، وفي ذلك ضرب من التصوير ، ولون من التخييل ، ونوع من المبالغة ، ولا سيما أن الشاعر أتى بلفظة " أَهْوال " منكرة ومجموعة للدلالة على التعظيم والتكثير ، الأمر الذي يوحي بالمبالغة في المدح ، ويشير إلى الإمعان في الثناء ، وينبئ عن الإيغال في الإطراء .

والزيادة بتضعيف عين الفعل " تَمَلَّكَ " في قول المتنبي :

تَمَلَّكَ الْحَمْدَ حَتَّى ما لِمُــفْتَخِرٍ فِي الْحَمْدِ حَاءٌ وَلا مِيمٌ وَلا دَالُ

للدلالة على الاستيلاء والاتخاذ والاستحقاق، أي أنه قد استولى على الحمد كله ، وأحاط به حتى أصبح كله خالصًا له ، ومنصرفًا إليه ، ولم يَدَع لأحد جزءًا منه ، ولم يترك لغيره فيه حظًّا ولا نصيبًا ، واتخذه ملكًا له بحيث لا ينازعه فيه أحد ، فضلًا عن أن يشاركه فيه ، واستحقه بفضله وكرمه وتفوقه على أقرانه في كل

أفعاله وأقواله ، وجعل المتنبي ذكر الخاء والميم والدال " إشارة إلى انفراده بجملته " [١] ، وكناية عن استقصائه لجميع أجزائه ، واحتيازه لعامته .

واللام في لفظة " الحمد " الأولى للدلالة على الجنس ، فجنس الحمد وحقيقته ملك للممدوح ، وتحتمل أن تكون للاستغراق ، أي أن الحمد بكل صوره وألوانه وأنواعه ملك له وليس لأحد غيره منها خلاق ولا نصيب ، واللام في لفظة " الحمد " الثانية للدلالة على العهد الذكري ، حيث سبق ذكر هذه اللفظة في الشطر الأول من هذا البيت.

وعبر المتنبي بلفظ " الحمد " دون " الشكر " ؛ لأن الحمد أعمّ من الشكر ، حيث إن الحمد يستعمل لصفة في الشخص ، وفيه معنى التعجب ، ومعنى التعظيم للممدوح ، كما يستعمل في مقابل إحسان يصل إلى الحامد ، وبدون مقابل ، أما الشكر فلا يستعمل إلا في مقابلة العوارف والصنائع [١] .

وفي التعبير بحرف الانتهاء والغاية " حتى " دلالة على أن الممدوح امتلك الحمد كله ، واحتازه بأكمله حتى بلغ في ذلك الغاية ، ووصل فيه إلى النهاية ، حيث لم يَبْقَ لأحد منه شيء .

وفي تنكير كلٍّ من " مفتخر " و " حاء " و " ميم " و " دال " بعد " ما " النافية دلالة على العموم والشمول ، لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم والشمول ، أي أن الممدوح لم يترك أي شيء من الحمد كائنًا ما كان لأي مفتخر كائنًا من كان .

وفي قوله : " في الحمد " استعارة تبعية ، حيث شبه الحمد بالظرف بجامع التمكن ، ثم استعير لفظ " في " الذي هو جزئية من جزئيات المشبه به ، واستعمل في المشبه ، وفي هذه الاستعارة ضرب من تجسيم الحمد وتشخيصه وتصويره بصورة الشيء المحسوس ، كما فيها أيضًا دلالة على شدة تمكن الممدوح من

(١) التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٨٥ .
(١) شموس العرفان بلغة القرآن / ١٤٢ / عباس أبو السعود / دار المعارف / القاهرة / بدون تاريخ .

الحمد ، وأنه استولى على كل معانيه ، واستقصى جميع صوره ، واحتاز جميع أجزائه حتى بلغ في ذلك الغاية والنهاية .

ونلحظ هنا أن المتنبي جاء بالأسلوب على خلاف مقتضى الظاهر ، حيث إن الظاهر كان يقتضي أن يقول : " تَمَلَّكَ الحمد حتى ما لمفتخر فيه حاء ولا ميم ولا دال " ، ولكنه خالف مقتضى الظاهر ، وعبر بالاسم الظاهر " الحمد " بدلًا من الضمير مبالغة في إبراز المعنى ، وزيادة في تمكينه وتوكيده في نفس المتلقي ، وتقريره وتثبيته في ذهنه ، " إذ التعبير بالاسم الظاهر أقوى وأبلغ في إبراز المعنى واستقراره في النفس من التعبير بالضمير " [٢] .

وأبدى ابن جني حكمه على معنى هذا البيت بالجودة مع تحفّظه بعدم حبه له فقال : " معنى هذا البيت جيّد إلا أنه غَيْرُ مُحَبَّبٍ لي " [٣] ، ولعل سبب عدم حُبّ ابن جني لهذا البيت هو ما وُجد فيه من تكرار أشبه بالتنافر ، حيث وردت فيه الميم سبع مرات ، وكذلك اللام سبع مرات أيضًا ، والحاء أربع مرات ، والدال ثلاث مرات ، هذا بالإضافة إلى أن ألفاظ " حاء " و " ميم " و " دال " وإن أصابت غرضها في خدمة المعنى إلا أنها أشبه بالمصطلحات العلمية غير الشاعرية .

وعبر المتنبي بحرف الجر " على " في قوله :

عَلَيْهِ مِـــنْهُ سَرَابِـــيلٌ مُضَاعَفَةٌ وَقَدْ كَفَـــاهُ مِنَ الْـــمَاذِيِّ سِرْبَالُ

للدلالة على الاستعلاء ، أي أن الممدوح أصبح يعلو جسده سرابيل من الحمد ؛ لتقيه من الذم ، وتدفع عنه العيب ، وتحميه من اللوم .

وفي التعبير بـــ " من " في قوله : " منه " دلالة على بيان جنس ما على الممدوح من دروع يتقي بها الذم والهجاء ، ويدفع بها اللوم والعيب .

واستخدم المتنبي لفظة " سرابيل " مُنَكَّرة وبصيغة الجمع للدلالة على التعظيم والتكثير ، فهي سرابيل من الحمد عظيمة القيمة ، وكثيرة العدد .

---

(٢) علم المعاني ١ / ٢٢٦ / د / بسيوني فيود .
(٣) الفَسْر ٣ / ٢٤٨ .

وفي لفظة " سرابيل " هذه استعارة تصريحية ، حيث شبه ما حصله الممدوح من محامد الشمائل ، ومكارم الأخلاق ، وما اكتسبه من الرياسة وألوان المجد والسؤدد بالسرابيل ، وذلك بجامع الحماية والذود في كلٍّ منهما ، فمحامد الشمائل ومكارم الأخلاق والرياسة والمجد والسؤدد يحمي الممدوح من الذم والهجاء واللوم والعيب ، ويذود عنه كل منقصة ، والسرابيل تحميه من البأس ، وتذود عنه الحر والبرد ، ثم حذف المشبه ، وصرح بلفظ المشبه به ، وفي هذه الاستعارة ضرب من التصوير والتجسيد ، حيث صَوَّرَت معاني الخلق الرفيع والشرف والمجد والسؤدد بصورة السرابيل إبرازًا للمعاني في صورة المُحَسّات ، هذا بالإضافة إلى ما في الاستعارة من التخييل ، والمبالغة في المعنى ، والاختصار في العبارة .

ووصف الشاعر هذه السرابيل بكونها " مُضاعَفة " تخصيصًا لها ، وإزالة للعموم ، وتقليلًا للاشتراك المستفاد من تنكيرها ، وفي هذا الوصف دلالة على أن هذه السرابيل قد ضوعف بعضها فوق بعض ، وهذا أبلغ في المدح ، وأعظم في الدلالة على الوقاية من الذم والعيب ، والحماية من اللوم والهجاء .

ووصلت جملة " قد كفاه من الماذيّ سربال " على جملة " عليه منه سرابيل مُضاعَفة " للتوسط بين الكمالين ؛ وذلك لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظًا ومعنى ، ولما بين الجملتين من تناسب ، فالأولى تبين ما يتقي به الممدوح الذم والهجاء ، والثانية تبين ما يتقي به بأس الحرب وشوكتها .

ولما كان اكتفاء الممدوح بسربال واحد في الحرب – في حين أنه يرتدي من الحمد سرابيل مُضاعَفة – أمرًا مدهشًا ، وقد يحوم حوله الشك لغرابته جاء المتنبي بحرف التحقيق " قد " ، وأكد به هذا المعنى ؛ ليدفع به ما قد يساور البعض حين يسمع هذا الخبر العجيب المدهش .

واللام في لفظة " الماذيّ " للدلالة على الجنس ، أي جنس هذه الدرع الماذيّة وحقيقتها وماهيتها ، ووصفت هذه الدرع بـــ " الماذيّ " على سبيل التشبيه ،

حيث " شبه لينها بلين العسل الماذيّ " [١] ، وهذا اللين من أمارات جودة الدرع ، وعلامات حسنها .

ونَكَّرَ المتنبي لفظة " سربال " للدلالة على الوحدة ، أي سربال واحد ، لا اثنان ، ولا أكثر ، إذ يكتفي الممدوح في اتقاء بأس الحرب ولأوائها بدرع واحدة !!

ونلحظ هنا أن المتنبي أثبت لممدوحه في الحرب من الماذيّ سربالًا واحدًا ، بينما أثبت له من الحمد حُلَلًا متتابعة ، وسرابيل كثيرة مضاعفة بعضها فوق بعض ، وفي هذا إشارة إلى أن الممدوح يتوقى الذم بأكثر مما يتوقى الحرب ، وأنه مُكْثِرٌ مما اشتمل عليه من كرم الذكر ، ومُقِلٌّ مما يدفع به عنه عادية الحرب ، كما فيه أيضًا إشارة إلى رغبة الممدوح في الحمد ، واستكثاره منه ، وقلة توقيه مخاطر الحرب وبأسها ، حيث لا يُكْثِر التوقع ، ولا يحتفل بالتحرز ، وفي هذا وَصْف للممدوح بالرغبة في الإحسان ، وقلة التوقي عند لقاء الأقران [٢] .

(١) الفَسْر ٣ / ٢٤٨ .
(٢) التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٨٥ .

المبحث الخامس : حكمة شخصية أبي شـجـاع وعظمتها :

يقـــول المتنبي :

٣٦- وَكَيْفَ أَسْتُرُ ما أَوْلَيْتَ مِـــنْ حَسَنٍ
وَقَدْ غَمَرْتَ نَـــــــوَالاً أَيُّـــهَا النَّالُ [١]

٣٧- لَطَّفْتَ رَأْيَـــكَ فِي بِـــرِّي وَتَكْرِمَـــتِي
إِنَّ الْكَرِيـــمَ عَلَى الْعَلْيَـــاءِ يَـــحْـــتَـــــالُ

٣٨- حَتَّـــى غَدَوْتَ وَلِـــلْأَخْبَارِ تَـــجْوَالٌ
وَلِـــلْكَـــوَاكِبِ فِـــي كَـــفَّـــيْكَ آمَالُ

٣٩- وَقَـــدْ أَطَالَ ثَنَائِي طُولُ لابِـــسِهِ
إِنَّ الثَّـــنَاءَ عَلَى الـــتِّـــنْـــبَالِ [٢] تِنْبَالُ

٤٠- إِنْ كُنْتَ تَكْبُرُ أَنْ تَخْتَالَ فِي بَشَرٍ
فَإِنَّ قَـــدْرَكَ فِي الأَقْدَارِ يَخْتَالُ

٤١- كَأَنَّ نَفْسَكَ لا تَرْضَاكَ صَاحِبَهَا
إِلاَّ وَأَنْـــتَ عَلَـــى الْـــمِفضَـــالِ مِفـــضَالُ

٤٢- وَلا تَعُـــدُّكَ صَوَّاناً لِمُهْجَـــتِـــهَا
إِلاَّ وَأَنْـــتَ لَهَـــا فِي الـــرَّوْعِ [٣] بَذَّالُ

---

(١) الجواد ، يقال : رجل نال : كثير النَّوْل ، ويقال : نال فلان نَيْلًا ونائلًا ونَوْلًا : صار كثير العطاء والنائل ، وأصله نَول مثل : حَذِر وأشِر على زنة فَعِل ، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فقلبت ألفًا ، فصارت نالًا ، الفَسْر ٣ / ٢٤٩ ، تاج العروس ، المعجم الوسيط / مادة : نول .

(٢) التِّنْبال ـ القصير ، والجمع تنابيل وتنابلة ، يقال : رجل تِنْبال وتِنْبَل وتِنْبالة : قصير ، ويرى سيبويه أن التاء فيه أصلية ، وهو على وزن فِعْلال ، بينما يرى ثعلب أنه من النَّبَل وهو الصغر ، وأن التاء فيه زائدة ، وأنه على وزن تِفْعال . المخصص ٢ / ٧٢ / لابن سيده / المطبعة الكبرى الأميرية / ببولاق مصر المحمية / الطبعة الأولى / ١٣١٦ هـ ، لسان العرب ، / مادة : تنبل .

(٣) الرَّوْع : الفَزَع ، يقال : راع الأمرُ فلانًا : أفْزَعه ، وارتاع : فَزِعَ ، ومنه التَّرَوُّع والرُّواع : الفَزَع . لسان العرب ، المعجم الوسيط / مادة : روع .

إن المتأمل في هذه الأبيات السبعة ، من البيت السادس والثلاثين إلى البيت الثاني والأربعين يجد أن المتنبي قد كشف فيها النقاب عن بعض الجوانب من شخصية الممدوح ، فذكر متعجبًا أنه لا يستطيع ستر أفضال الممدوح لكثرتها وشهرتها ، حيث أصبحت أشهر من أن تستر ، ولم ينس المتنبي – وتلك عادته غالبًا في مديحه – أن يجعل لنفسه في قصيدته نصيبًا من المدح ، فذكر أن الممدوح تلطف في برِّه وإكرامه ؛ ليحصل على مدحه له ، حيث كان يراسله ، ولا يجاهر ببرِّهِ خوفًا من كافور حتى اتفق لقاؤهما في سفر ، وهكذا يحتال الكريم على العلياء دون أن تعجز حيلته ، أو تضعف عزيمته ، فلما مدحه جالت أخبار كرمه وحسن ذكره في الآفاق ، وأصبح لكل أحد حتى الكواكب أمل في كفيه ، وأفاد أن جلالة قدر الممدوح ، وكثرة فضائله قد أطلقتا لسانه بالمدح والثناء ، وفتحتا له باب الحمد والإطراء ، وأخبر أن نفس الممدوح إن كانت تكبر عن استعمال الاختيال والزهو بين الناس فإن قَدْره يختال في أقدار الملوك المتشبهين به ، وأن نفسه لما طُبِعَتْ عليه من علو الهمة لا ترضاه لها صاحبًا حتى يزيد على كل كثير الفضل فضلًا ، ولا تعده قائمًا بحق صيانتها حتى يبذلها في أهوال الحرب ومهالكها .

والواو في قول المتنبي :

وَكَيْفَ أَسْتُرُ ما أَوْلَيْتَ مِنْ حَسَنٍ وَقَدْ غَمَرْتَ نَـوَالاً أَيُّهَا النَّالُ

للاستئناف ؛ لأن ما بعدها إنشاء ، وما قبلها خبر ، ويمتنع عطف الإنشاء على الخبر ، لكنها لا تخلو من الدلالة على ربط أجزاء الكلام بعضها ببعض ، فهي تعطف مضمون الكلام الداخلة عليه على مضمون الكلام السابق عليها ربطًا لأجزاء الكلام ، وشدًا لأطرافه ، وتلاحمًا لأبعاضه ، وتشابكًا لجمله ؛ حتى يكون الأسلوب كالسبيكة والعقد ترابطًا وتناسبًا وتناسقًا ، وقد عطفت هنا مضمون

الحديث عن حكمة الممدوح وعِظَم شخصيته على مضمون الحديث عن شجاعته .

والغرض من الاستفهام في قوله : " كيف أستر ما أَوْلَيْتَ من حَسَنٍ ؟ " هو التعجب ، فالمتنبي هنا يتعجب من سَتْره أفضال الممدوح ، وأنواع إحسانه ، وصور إنعامه عليه وقد غمرته ، وغرق فيها ، ويحتمل أن يكون الاستفهام هنا بمعنى النفي ، أي أن المتنبي لا يستطيع سَتْر نِعَم الممدوح عليه ؛ لأنها أصبحت أشهر من أن تستر ، وأظهر من أن تخفى وتكتم ، وفي هذا الاستفهام إثارة للمخاطب ، وتحريك لمشاعره ، وجذب لانتباهه .

وعبر المتنبي بالمضارع " أستر " للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن عجز الشاعر عن ستر نعم الممدوح عليه ، وإحسانه إليه ، وبره به أمر متجدد شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، وحينًا بعد حين .

واستخدم الاسم الموصول " ما " الدال على العموم لعموم نِعَم الممدوح عليه وكثرتها وعِظَمها بحيث يصعب تعدادها ، فضلًا عن حصرها واستقصائها .

وفي قوله : " أَوْلَيْتَ من حَسَنٍ " إيجاز بالحذف ، حيث حذف هنا المفعول به للفعل " أولى " ، كما حذف موصوف الصفة " حَسَن " ، والتقدير : كيف أستر ما أوليتني من معروف حَسَن ؟ ولا يخفى ما في تنكير لفظة " حَسَن " من الدلالة على التكثير والتعظيم ، أي معروف كثير ومتعدد وعظيم .

وأتى المتنبي بجملة الحال " قد غَمَرْتَ نَوالًا " كأنها تعليل وسبب للجملة السابقة " ، فكأنه قال : أنا لا أستطيع أن أستر آلاءك العظيمة التي أزجيتها إليّ ؛ لأنك أَغْرَقْتَنِي فيها ، ولا أستطيع أن أخفي أياديك البيضاء التي أنعمت بها عليّ ؛ لأنك غمرتني بها .

وأكد المتنبي غَمْرَ الممدوح له بالنوال والصلة والبر بحرف التحقيق " قد " ؛ ليؤكد بذلك تعجبه من عدم استطاعته ستر ما أولاه ممدوحه من أنواع الإحسان ، وأوجه البر .

وفي قوله : " غَمَرْتَ " استعارة تصريحية تبعية ، حيث شبه كثرة عطاء الممدوح وصلته وبره بالغَمْر الذي هو بمعنى التغطية والستر ، ثم حذف المشبه ، وصرح بلفظ المشبه به وهو الغَمْر ، واشتق منه " غَمَرَ " ، وفي هذه الاستعارة ضرب من التصوير ، وإبراز للأمور المعنوية في صورة المُحَسّة ، كما فيها دلالة على المبالغة في كثرة عطاء الممدوح ، وكأن نعم الممدوح عَلَتْ الشاعر وسترته وغَطَّتْهُ من أجل كثرتها ، إذن كيف يسترها ؟ !! هذا بالإضافة إلى ما في الاستعارة من الإيجاز على اعتبار أن أصلها تشبيه حذف منه أحد ركنيه ، كذلك ما فيها من خيال يحرك عاطفة السامع ، ويثير وجدانه ، ويوقظ نفسه ، ويلفت انتباهه .

وأتى المتنبي بالتمييز " نوالًا " ؛ ليبين للمخاطب نوع ما قد غمره وستره به ممدوحه الذي أفاض عليه بحورًا من جوده ، وأثقله بهداياه وألطافه .

ثم جاء بجملة النداء " أَيُّها النّالُ " تعظيمًا للممدوح ، وتوجيهًا لأنظار السامعين إليه ، وتركيزًا للاهتمام حوله ، وحَذَفَ أداة النداء تعبيرًا عن شعوره بقربه من ممدوحه ، وحضور ممدوحه في قلبه ، وقربه من نفسه ، ووُصِلَتْ " أَيْ " بـــ " ها " التنبيهية لجذب انتباه المخاطب ، وتنبيهه على أن ما بعدها – وهو " النّال " – هو المقصود بالنداء .

ووصف المتنبي المنادى " أَيّ " بصيغة المبالغة " النال " للدلالة على التكثير والمبالغة في النّوال والعطاء ، وعرف " النال " باللام هنا للدلالة على العهد الحضوري ، أي النّال الحاضر في ذهن الشاعر وقت الإنشاد ومخاطبته .

وفي التعبير بقول المتنبي "لَطُفْتَ " في قوله :

لَطُفْتَ رَأَيْكَ فِي بِرِّي وَتَكْرِمَتِي إِنَّ الْكَرِيمَ عَلَى الْعَلْيـــاءِ يَحْتَالُ

دلالة على أن الممدوح بلغ الغاية من اللطف والتدبير ، وبذل النهاية في التَّرَوِّي والاحتيال حتى تَوَصَّل إلى إكرام المتنبي بالبر والصلة ؛ ليحصل على ثنائه العاطر ، ويفوز بمدحه الباهر ، شأنه في ذلك شأن الكريم الذي يحتال ؛ ليُحَصِّل لنفسه أعلى المراتب ، ويُحْرِز لها أفضل المنازل ، وفي هذا إشارة إلى عِظَم منزلة مدح المتنبي ، وجلالة قَدْره ، ونفاسة معدنه ، حيث كانت تشرئبّ إليه أعناق الخلفاء ، وتتطلع إليه نفوس الأمراء ، إذ كان مدحه يُمَثِّل لهم دُرَّةً في تِيْجانهم .

وجاء التعبير بحرف الجر " في " للدلالة على السببية ، أي أن الممدوح لَطُفَ رأيه ، وبالغ في تدبيره ، وبذل الجهد في تفكيره ؛ ليصل إلى بِرّ الشاعر وتكرمته تحصيلًا لمدحه له ، وتحقيقًا لثنائه عليه .

وعطف المتنبي الـــ " تكرمة " على الـــ " بِرّ " عطف ترادف وتفسير تأكيدًا ومبالغة في المعنى ، وتكثيرًا من وسائل الإخبار عما في النفس ، وتفننًا في التعبير ، ومراوحة في الأسلوب ، وذلك على حد قول الحطيئة :

ألا حَبَّذا هِنْدٌ ، وأَرْضٌ بها هِنْدُ

وهِنْدٌ أَتَى مِنْ دُوْنِها النَّأْيُ والبُعْدُ [1]

والبُعْدُ هو النَّأْيُ .

وفصلت جملة الاستئناف " إنَّ الكريمَ على العَلْياءِ يَحْتالُ " عن جملة " لَطُفْتَ رَأْيَكَ في بِرِّي وتَكْرِمَتِي " ؛ لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال ، حيث إن جملة الاستئناف جاءت كأنها جواب عن سؤال فُهِمَ من فحوى الجملة السابقة عليها ، والتقدير : لماذا لطّف الممدوح رأيه في بِرّ الشاعر وتكرمته ، ولكون جملة الاستفهام جاءت كالجواب عن سؤال تضمنته الجملة السابقة عليها فقد ترك العطف بينهما لما بين الجملتين من ارتباط قويّ ووثيق يشبه ارتباط الجواب بالسؤال ، ومعلوم أن الجواب لا يعطف على السؤال .

(١) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السِّكِّيْت / ٧١ / من الطويل .

وأكدت هذه الجملة الاستئنافية بـــ " إِنَّ " تنزيلًا للمخاطب خالي الذهن منزلة المتردد السائل ؛ لأن الجملة السابقة عليها قد تضمنت خبرًا غريبًا ، وهو تلطيف الممدوح رأيه في بِرّ الشاعر وتكرمته ، وهذا يثير في النفس تساؤلًا واستشرافًا لمعرفة الخبر ، إذ كيف يتلطف الإنسان في بِرّ غيره وتكرمته ؟ ولذا فقد جاء الخبر مؤكدًا تنزيلًا للمخاطب خالي الذهن منزلة السائل المتردد ، وألقي إليه الخبر مؤكدًا ؛ ليواجه ما أثير في نفسه من تردد ويزيله ، ويجيب عما أثير فيها من تساؤل .

وعبر المتنبي بالمضارع " يحتال " للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن هذا الاحتيال من الكريم على العلياء يحدث منه شيئًا فشيئًا ، وحينًا بعد حين ، ولا يخفى ما في التعبير بالمضارع بصيغة الافتعال من الدلالة على الاجتهاد في الأمر ، وبذل الجهد في تحقيقه نظرًا لرفعة منزلته ، وعِظَم قيمته ، وهل هناك شيء أعظم قيمة لدى الممدوح من مدح المتنبي له ؟ ولا يخفى ما في التعبير بالمضارع هنا أيضًا من الدلالة على التقوية والتوكيد ؛ لأنه احتوى على إسناد متكرر ، حيث أسند مرة إلى الضمير المستتر العائد إلى " الكريم " ، ثم أسند مرة أخرى هو والضمير المستتر فيه إلى اسم " إِنَّ " ، وهو " الكريم " ، وما فيه إسنادان أقوى وآكد مما فيه إسناد واحد .

واللام في كلٍّ من " الكريم " و " العلياء " للاستغراق ، أي أن كل كريم يحتال على كل علياء ؛ لتفيده شرفًا عاليًا ، وذكرًا خالدًا ، وتكسبه عظمة باهرة ، ومنزلة سامية .

والناظر في هذه الجملة الاستئنافية " إِنَّ الكريمَ على العَلْياءِ يَحْتالُ " يجد أنها من الكلام الجامع ؛ لتضمنها معنى الحكمة ، وصحة جريانها مجرى الحكمة الذائعة ، وذيوعها ذيوع المثل السائر .

وفي التعبير بحرف الغاية " حتى " في قوله :

حَتَّى غَدَوْتَ وَلِلْأَخْبَارِ تَـــجْوَالٌ وَلِلْكَوَاكِبِ فِـــي كَفَّيْكَ آمَالُ

دلالة على أن الممدوح بذل جهدًا كبيرًا ، وأعمل عقله وفكره طويلًا واستمر في الاحتيال على إكرام الشاعر حتى وصل إلى برّه وتكرمته ، الأمر الذي جعله يمدحه ، فجال حسن ذكره والثناء عليه في الآفاق ، وأصبح لكل أحد أمل في عطائه ، حتى الكواكب قد أصبحت تأمله ، ففي التعبير بـــ " حتى " إشارة إلى أحداث ومشاهد وحلقات قد انطوت واقتضبت يملؤها الخيال ، ويتابعها العقل في شغف ؛ لأنها من الأدوات التي لها وقع اكتناز في الأسلوب ، فهي تدخل على الغاية مصورة قمة الحدث [١] .

وفي قوله : " للأخبار تَجْوال " استعارة مكنية ، حيث شبهت الأخبار بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو التَّجْوال ، وأثبت للمشبه ، وفي هذه الاستعارة ضرب رائع من التصوير ، حيث صورت الأخبار تجول وتطوف في الآفاق ، وتخترق الطباق ، وفي إثبات التَّجْوال للأخبار لون بديع من التخييل يحرك مشاعر المخاطب ، ويثير عاطفته ، ويلفت انتباهه ، ويخلع على الأسلوب رونقًا وجمالًا ، ويكسوه حسنًا وبهاء .

وفي التعبير بالمصدر " تَجْوال " على زنة تَفْعال دلالة على التكثير والمبالغة في الجَوَلان ، كما سبق بيان ذلك في التعبير بالمصدر " تَصْهال " في البيت الرابع [٢] .

وفي قوله : " للكواكب في كفيك آمال " استعارة مكنية أيضًا ، حيث شبهت الكواكب بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو الآمال ، وأثبت للمشبه ، وفي ذلك تصوير رائع جعل للكواكب بعض صفات الإنسان ، حيث جعلها تأمل وتتمنى ، وبَثَّ فيها روح الحياة والأمل .

---

(١) علم المعاني / ١٦٣ ، ١٦٥ / د / صبّاح دراز / مطبعة التركي / طنطا / بدون تاريخ .
(٢) البحث صـ ١٧ .

واللام في كلٍّ من " الأخبار "و " الكواكب " للدلالة على الجنس ، أي جنس الأخبار وحقيقتها ، وكذلك جنس الكواكب وحقيقتها من غير نظر إلى الأفراد .

وفي التعبير بحرف الظرفية " في " دلالة على تمكن العطاء والنوال من كَفَّي الممدوح حتى أصبحتا كأنهما وعاء للبرّ والعطاء .

وفي قوله : " كَفَّيْكَ " مجاز مرسل علاقته الجزئية ، حيث عبر بالجزء ، وهو الكَفَّان ، وأراد الكل وهو الممدوح ، وإنما خصّ الشاعر الكفين بالذكر لما لهما من مزيد اختصاص وشدة اتصال بالغرض المقصود ، وذلك من حيث تعلق العطاء بهما ، وانطلاقه منهما ، وفي التعبير بلفظ " الكفين " بصيغة التثنية دلالة على المبالغة في الكرم ، والكثرة الفائقة في العطاء ، والغزارة الوافرة في النوال .

وفي تنكير لفظة " آمال " وجمعها دلالة على التعظيم والتكثير ، أي آمال عظيمة وكثيرة ، ولمَ لا ؟ وهي آمال في كَفَّي الممدوح الذي جالت أخبار كرمه في الآفاق ، حتى طمعت النجوم في نواله .

وأسند الفعل " أَطالَ " إلى فاعله المجازي " طُوْلُ لابِسِهِ " في قوله :

وَقَدْ أَطَالَ ثَنَائِي طُولُ لابِسِهِ إِنَّ الثَّنَاءَ عَلَى النِّنْبَالِ تِنْبَالُ

على سبيل المجاز العقلي بعلاقة السببية ، حيث إن الطول ليس هو الفاعل الحقيقي لإطالة الثناء ، وإنما هو سبب فيه ، أي أن طول ثناء الشاعر إطرائه على الممدوح إنما حدث بسبب جلالة قدر الممدوح ، وكثرة فضائله ، وعظيم كرمه ، ونظرًا لقيمة هذا السبب ، وعِظَم شأنه ، وجلالة قدره فقد أسند الفعل إليه ، وفي هذا الإسناد لون من المبالغة في المعنى ، وضرب من التحسين للفظ ، ونوع من الخيال يحرك مشاعر السامع ، ويثير وجدانه ، ويمتع عاطفته .

ونظرًا لعِظَم هذا المعنى وجماله وغرابته فقد أكده المتنبي بحرف التحقيق " قد " ؛ ليقرره في نفس المتلقي ، ويثبته في فؤاده .

وعبر المتنبي بلفظ " ثناء " دون " المدح " ؛ لأن " الثناء مدح مكرر " [١] ، فهو مشتق من الثَّنْي بمعنى العطف والتكرير ، بينما المدح يكون لمرة واحدة .

والتعبير بالطُّول في قوله : " طُولُ لابِسِهِ " يحتمل أن يكون على سبيل الحقيقة ، أي أن الممدوح طويل الجسم ، وهذا ما ذهب إليه الخطيب التبريزي حيث يقول في تعليقه على هذا البيت : " وَصَفَ الممدوح بالطول ... وأن ثناءه طال لطول الممدوح " [٢] ، وهذا مما يمدح به ؛ لأنه من دلائل الشرف والمجد ، وأمارات الشجاعة والفروسية ، بخلاف القِصَر فهو مما يُهْجَى ويذمّ به ، يقول أُثال بن عَبْدة بن الطبيب :

تَبَيَّنَ لي أنّ القَماءةَ ذِلّةٌ وأنّ أَعِزَّاءَ الرِّجال طوالُها [١]

ويحتمل أن يكون على سبيل المجاز ، حيث شبه تعدد فضائل الممدوح ، وكثرة مكارمه ، وجلالة قدره بالطول ، ثم حذف المشبه ، وصرح بلفظ المشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية ، وفي هذا ضرب بديع من التصوير ، حيث صوّرت فضائل الممدوح الكثيرة ومكارمه الغزيرة بالطول ، وكلا الاحتمالين دليل على شرف الممدوح ، وعلوّ شأنه ، وعِظَم قدره .

وفي قوله : " لابِسِهِ " استعارة مكنية ، حيث شبه الثناء بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو اللُّبْس ، وأثبت للمشبه ، وفي هذا لون من التصوير ، حيث صور الثناء الذي يحمي صاحبه من الذم والهجاء باللباس الذي يحمي صاحبه من الحر والبرد ، وفي إثبات اللُّبْس للثناء ضرب من التخييل يثير مشاعر المخاطب ، ويحرك وجدانه ، ويمتع عاطفته ، ويجذب انتباهه .

---

(١) الفروق اللغوية / ٥١ .
(٢) المُوْضِح في شرح شعر أبي الطيب المتنبي ٤ / ٤٢٣ .
(١) لم أعثر لقائله على ديوان ، وهو موجود في خزانة الأدب ٩ / ٤٨٨ / من الطويل .

وبعد أن ذكر الشاعر أن الذي أطلق لسانه بمدح الممدوح ، وفتح له باب الثناء عليه هو كثرة مكارمه ومحامده ، وتعدد فضائله ومحاسنه ، وحسن شمائله ومناقبه ، وعِظَم أمجاده ومفاخره أتى بجملة استئنافية علّل فيها ذلك فقال : " إِنَّ الثَّناءَ على التِّنْبالِ تِنْبالُ " ، أي أن الثناء يقصر عن القصير الحال ، والراغب عن الكرم والإفضال ؛ لأن المادح لا يجد ما يمدح الممدوح به ، ويثني به عليه .

وفصلت هذه الجملة الاستئنافية عن الجملة السابقة عليها ؛ لما بينهما من شبه كمال الاتصال ، حيث جاءت الجملة الاستئنافية كالجواب عن سؤال تضمنته الجملة السابقة عليها ، وكأن سائلًا سأل وقال : لِمَ طال ثناء الشاعر على الممدوح المتعدد المناقب والمفاخر ، والكثير الأفضال والمحاسن ؟ فجاءت الجملة الاستئنافية مجيبة عن هذا السؤال ، وأكدت بـــ " إِنَّ " تنزيلًا للمخاطب خالي الذهن منزلة السائل المتردد لدهشته واستغرابه من الخبر الذي تضمنته الجملة السابقة ، وألقي إليه الخبر مؤكدًا ؛ ليواجه ما أثير في نفسه من تردد ويزيله ، ويجيب عما أثير فيها من تساؤل .

واللام في كلٍّ من " الثناء " و " التنبال " للجنس والحقيقة ، أي جنس الثناء والتنبال وحقيقتهما من غير نظر إلى الأفراد .

وبين كلٍّ من " التنبال " و " تنبال " جناس تام لاتفاق لفظهما واختلاف معنييهما ، حيث إن الأولى تعني القِصَر عن سبيل المجد والشرف ، والثانية تعني القِصَر عن المدح والثناء والإطراء .

وفي هذه الجملة الاستئنافية تعريض بكافور ، يقول شيخ العربية الشيخ / محمود شاكر : " يشير بالتِّنْبال إلى كافور " (٢) .

وعبر المتنبي بأداة الشرط " إنْ " في قوله :

إِنْ كُنْتَ تَكْبُرُ أَنْ تَخْتَالَ في بَشَرٍ   فَـــإِنَّ قَدْرَكَ فِي الأَقْدَارِ يَخْتَالُ

---

(٢) المتنبي / ٣٦٧ .

وهي هنا في موقع " إذا " ؛ لأن تَرَفُّع الممدوح عن التكبر نظرًا لكرم أخلاقه وتواضعه وفضله من الأمور المحققة الوقوع ، والمقطوع بها ؛ ولأن الملوك على عظمتها وجلالتها وفخامتها تمدح بتواضعها تلطفًا ، وجبرًا لقلوب من يتواضعون معه ، ولعل المتنبي عبر بـــ " إنْ " هنا في موقع " إذا " للدلالة على أن ترفُّع الممدوح عن الكبر والعُجْب بين أعدائه أمر غير محقق الوقوع ، وغير مجزوم بحدوثه ، وغير مقطوع بحصوله ؛ لأنه قد يتكبر على أعدائه احتقارًا لشأنهم ، وازدراء لهم .

والتعبير بالفعل " كان " وإن كان بلفظ الماضي فهو بمعنى المستقبل " تكن " ؛ لأن أداة الشرط تنقل زمن الفعل من المُضِيّ إلى الاستقبال ؛ لأنها تفيد تعليق حصول الجزاء على حصول الشرط ، والتعليق لا يكون إلا في الاستقبال ، ويحتمل أن تكون " كان " هنا استمرارية ، فتشمل الماضي والحاضر والمستقبل .

وعبر المتنبي بالمضارع في كلٍّ من " تَكْبُر " و " تختال " للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن دلالة الحدث في كل واحد منهما تحدث وتتجدد باستمرار شيئًا فشيئًا ، وحينًا بعد حين ، وحالًا بعد حال .

وفي قوله : " تَكْبُرُ أَنْ تَخْتالَ " إيجاز بالحذف ، حيث حذف حرف الجر " عن " والتقدير " تَكْبُرُ عَنْ أَنْ تَخْتالَ " ، وفي هذا الحذف مع دلالة السياق على المحذوف ضرب من الإيجاز بليغ ، ولون مـــــن الاختصار بـــــديع .

وعبر المتنبي بالفعل " تختال " بصيغة الافتعال ؛ للدلالة على أن الاختيال لا يكون إلا بالتكلف ، فالمختال يتكلف التَعَظُّم والتكبر والزَّهْو .

وفي تنكير لفظة " بَشَرٍ " دلالة على العموم والشمول ، أَيْ أَيّ بشر كانوا ؛ لأن النكرة في سياق الشرط تدل على العموم والشمول .

وفي اقتران جملة جواب الشرط " فَإِنَّ قَدْرَكَ في الأَقْدارِ يَخْتالُ " بالفاء دلالة على ربط الجواب بالشرط ، وتلازمهما ، وسببية الجواب في الشرط ، وترتّب

الجواب على الشرط ، يقول المرادي " وأما الفاء الجوابية فمعناها الربط ، وتلازمها
السببية " [١] .

وفي جملة الجواب هذه استعارة مكنية ، حيث شبه قَدْر الممدوح في ظهور عظمته وفخامته بإنسان ، ثم حذف المشبه به ، وأتى بشيء من لوازمه وهو الاختيال ، وأثبت لقَدْر الممدوح ، وفي ذلك لون رائع من التصوير والتجسيم ، حيث صَوّر الشاعر قَدْر الممدوح – وهو أمر معنوي معقول – بصورة المحسوس المشاهد ، وبَثّ فيه روح الحياة ، وفي إثبات الاختيال لقَدْر الممدوح ضرب بديع من التخييل يحرك المشاعر ، ويثير الوجدان ، ويلفت الانتباه ، ويكسو العبارة حسنًا وبهاء ، ويخلع عليها رونقًا وجمالًا .

وبما أن إثبات الاختيال لقَدْر الممدوح قائم على التخييل – وهو أمر عجيب وغريب ومثير للمشاعر – فقد أكده الشاعر بـــ " إنّ " ؛ ليثبته في نفس المخاطب ، ويقرره في ذهنه .

وفي إضافة " قَدْر " إلى ضمير المخاطب – وهو الممدوح – دلالة على عِظَم هذا القَدْر وفخامته وجلالته وشرفه ، وكيف لا يكون كذلك وهو يختال في أقدار الملوك المتشبهين بالممدوح ؟

واللام في لفظة " الأقدار " للدلالة على الجنس ، أي حقيقة الأقدار وماهيتها ، وتحتمل أن تكون للاستغراق ، أي كل أقدار الملوك المتشبهين بالممدوح .

وفي هذا البيت طباق رائع وخَلّاب ، حيث طابق بين الفعلين " تختال " و " يختال " طباق سلب ، حيث إنهما من مادة واحدة ، والأول منهما منفي بالفعل " تَكْبُرُ " ، والثاني مثبت ، وفي هذا الطباق إيضاح للمعنى وتقرير له ،

(١) الجنى الداني / ٦٦ .

حيث أظهر الممدوح متواضعًا ومختالًا ، متواضعًا بين رعيته ومع أوليائه وأحبائه ، ومختالًا بين أقرانه وعلى أعدائه .

والتعبير بـــ " كَأَنَّ " في قوله :

كَأَنَّ نَفْسَكَ لا تَرْضَاكَ صَاحِبَهَا إِلاَّ وَأَنْتَ عَلَى الْـــمِفضَالِ مِفضَالُ

ليس للدلالة على التشبيه ، وإنما جاء التعبير بها هنا للدلالة على التحقيق ، أي أن نفسك لما جُبِلَتْ عليه من الكرم ، وعُلُوّ الهِمّة ، وشرف المناقب لا ترضاك صاحبها ، ولا تألفك راضية بفعلك ، ولا تصحبك شاكرة لسعيك حتى تزيد فضلًا على كل من هو كثير الفضل ، وحتى يَفْضُل كلُّ مِفْضال بما تعطيه وتبذله له ، وتجود وتسخو به عليه ، ويحتمل أن تكون " كَأَنَّ " هنا للدلالة على الظن والشك ، أي أظن وأشك في كونك صاحبًا لنفسك ذات الهمة العالية والمناقب الشريفة حتى تكون مِفْضالًا على كل مِفْضال .

وفي إضافة " نَفْس " إلى ضمير المخاطب – وهو الممدوح – دلالة على تعظيم هذه النفس وتشريفها ، وجلالة قدرها ، وفخامة شأنها .

وفي هذا البيت قصر بديع ، حيث قصر المتنبي رضا الممدوح عن نفسه صاحبًا لها على كونه مِفْضالًا على كل مِفْضال ، ومتفوقًا على كل مُتَفَضِّل ، وبما أن هذا المعنى من المعاني الغريبة العجيبة ، والرائعة البديعة فإن المتلقي قد ينكره أو يشك ويتردد في قبوله ؛ ولذا فقد استخدم الشاعر من طرق القصر طريق النفي والاستثناء ؛ ليؤكده في نفسه ، حيث إن النفي والاستثناء وراءه – كما قال الدكتور / محمد أبو موسى – : " قَدْر من الانفعال والحِدّة ... وله قعقعة وجلبة " [1] ، ويستخدم في المعنى الذي يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد ؛ لأنه قد ينكره المخاطب ، أو يشك فيه ، ويقيم دونه الأسوار ، ويحتمل أن يكون التوكيد هنا

(١) دلالات التراكيب / ١٤٨ .

تنزيلًا للممدوح منزلة المنكر ، وذلك عندما واجهه الشاعر بهذا المعنى البديع العجيب،عالي النبرة ، وحاسم النغمة .

وعبر بالفعل المضارع " ترضى " للدلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، فنفي الرضا هنا يحدث شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، ووقتًا بعد آخر .

واستخدم المتنبي ضمير الخطاب " أنت " رغم أن المخاطب لم يكن حاضرًا أمامه وقت الإنشاد إشارة إلى حضوره في ذهنه ، وقربه من قلبه ، وتعلق نفسه به ، وكأن الشاعر إن لم يشاهد ممدوحه بعينه وقت الإنشاد فقد شاهده بقلبه وحسه وشعوره .

واللام في لفظة " المِفْضال " تحتمل أن تكون للدلالة على الجنس ، أي جنس المِفْضال وحقيقته بدون نظر إلى الأفراد ، وتحتمل أن تكون للدلالة على الاستغراق فتستوعب جميع الأفراد ، ويراد بمدخولها كل فرد من أفراد جنسه .

واستخدم المتنبي التعبير بصيغة المبالغة في كل من " المِفْضال " و " مِفْضال " للمبالغة في المدح والإطراء والثناء على الممدوح ، حيث وصفه بأنه أكثر وأعظم فضلًا من كل كثير الفضل .

وفي التعبير بحرف الجر " على " دلالة عُلُوّ على الممدوح على كل مِفْضال ، واستعلائه على كل نِدٍّ ، وارتفاعه عن كل ضريب يظن أنه يماثله أو يشابهه ويقاربه

وعطف المتنبي جملة القصر في قوله :

وَلا تَــعُدُّكَ صَوَّاناً لِمُهْجَتِــهَا إِلاَّ وَأَنْتَ لَهَا فِــي الرَّوْعِ بَذَّالُ

على جملة القصر في البيت السابق ؛ لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين ، وذلك لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى ، هذا بالإضافة إلى اتفاقهما في الغرض ، وهو مدح الممدوح وإطراؤه ، وذكر فضائله ومحاسنه وأمجاده ، وكذلك كون المُتَحَدَّث عنه فيهما واحدًا وهو الممدوح .

وهنا قصر المتنبي عَدَّ الممدوح صَوّانًا لمهجته على كونه بَذّالًا لها في الرَّوْع تقتحم المهالك ، وتواجه المتالف ، وبما أن هذا المعنى من المعاني العجيبة البديعة ، والعالية السامية في المدح ، وأنه محل دهشة واستغراب فقد صاغه الشاعر في أسلوب قصر بطريق النفي والاستثناء أيضًا كما فعل في البيت السابق ؛ ليؤكده ويقرره ويُثَبِّته في نفس المتلقي .

وعبر المتنبي بصيغة المبالغة في كلٍّ من " صَوّانًا " و " بَذّال " للدلالة على المبالغة والتكثير في معنى كلٍّ منهما ، أي أن نفس الممدوح لا تَعُدّه كثير الصيانة لها ، ولا تعتقده ساعيًا مُجِدًّا في مَسَرَّتها وغِبْطَتها إلا إذا أكثر من ابتذالها في الحرب تقتحم الأهوال والغَمَرات ، وتواجه المهالك والمتالف .

وبين هاتين اللفظتين " صَوّانًا " و " بَذّالُ " طباق بديع رائع ، حيث أظهر الممدوحَ صَوّانًا لنفسه وبَذّالًا لها في نفس الوقت ، فهو صَوّان لها مما يشينها من سُبّة وذَمّ وهجاء من جَرّاء الجُبْن والتقاعس عن خوض الغَمَرات ، واقتحام العَقَبات ، وبَذّال لها فيما يكسبها المجد والسؤدد ، ويحقق لها العظمة والفخامة ، ويُنِيْلها الشرف الأعلى والأسمى ، ويجعلها أهلًا لحسن التمجيد والثناء ، وعظيم المدح والإطراء ، ولا يخفى ما أضفاه الطباق على الأسلوب هنا من حسن وجمال ، حيث إن الضد يظهر حسنه الضد ، هذا بالإضافة إلى ما في الطباق من ترابط وتناسق لأجزاء الكلام ، حيث إن الضد أقرب خطورًا بالبال عند ذكر ضده ، وإن السمع حينما يطرقه الضد الأول يكون مهيئًا وتوّاقًا لذكر الضد الآخر ، وهذا أدعى لتمكين المعاني في النفس ، وترسيخها في القلب ، وتثبيتها في الذهن .

ونلحظ أن المتنبي عبر عن النفس في البيت السابق بلفظ المهجة هنا ؛ لأنه في البيت السابق كان يتحدث عن المبالغة في الكرم والإنفاق وهذا يناسبه ذكر النفس التي تدل على الذات ، بينما هو في هذا البيت يتحدث عن المبالغة في

الشجاعة ، واقتحام الأهوال ، وخوض الغَمَرات ، وبَذْل المُهَج تسيل على نِصال السيوف وأَسِنّة الرماح ، وهذا يناسبه ذكر المُهْجة التي تعنى روح الإنسان ، وخالص دمه الذي إذا خرج خرجت روحه ، وهو دم القلب .

واللام في لفظة " الرَّوْع " للدلالة على الجنس ، أي جنس الرَّوْع وحقيقته ، وفي التعبير بها إشارة إلى المبالغة في عِظَم شجاعة الممدوح وبسالته ؛ لأن بَذْل النفس فيها مقام لا يرتقي إليه إلا الصناديد الشجعان الأبطال .

المبحث السادس : من بدائع حِكَم المتنبي :

يقـــول المتنبي :

٤٣- لَوْلا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَّـــالُ

٤٤- وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الْإِنْسَانُ طَاقَتَهُ مَا كُلُّ مَاشِـــيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلالُ [١]

٤٥- إِنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرْكُ الْقَبِيحِ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسانٌ وَإِجْمَالُ

٤٦- ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ [٢] الْعَيْشِ أَشْغَالُ

إن المتأمل في هذه الأبيات يجد أن المتنبي قد بَيَّنَ فيها صواب ما قَدَّمَ من أفعال الممدوح وشمائله ، فأفاد أنه لولا وجود المشقة في بلوغ السيادة لصار الناس كلهم سادة ، ثم بَيَّنَ هذه المشقة ، وذكر ما يمنع من السيادة ، فذكر أن من جاد افتقر ، وأن من أقدم قُتِل ، ولا سيادة بدون كلٍّ من الجود والشجاعة ، ثم اعتذر عَمَّنْ لم يسد بأن الإنسان إنما يبلغ مقدار وسعه وطاقته ، وليس كل إنسان أهلًا للاضطلاع بأعباء السيادة حتى يستطيع أن يسود ، ويبلغ ما بلغ الممدوح ، ثم أوضح أن ترك القبيح صار يعد إحسانًا لكثرة من يعامل بالقبيح ، ثم أفاد في ختام هذه القصيدة أن ذكر الإنسان بعد موته بجميل مساعيه بمنزلة العمر الثاني له ، وأن حاجته من الدنيا قدر القوت ، وأن من طلب من الدنيا غير ذلك فإنما يكون قد تعلق بفضول لا حاجة إليها ، وشغل لا غناء فيه .

وقد صاغ المتنبي هذه الأبيات في أسلوب الكلام الجامع ، حيث إنها تجري مجرى الأمثال السائرة ، والحِكَم الذائعة ؛ ولذا فقد ذكرها الثعالبي تحت عنوان " إرسال المثل والاستملاء والموعظة وشكوى الدهر وما يجري مجراها " [٣] ، وقد جاءت نبرة المتنبي فيها عالية ، ونغمته فيها حاسمة ، وتعبيره فيها قويًّا شديدًا ،

---

(١) الشِّمْلال : الناقة القوية الخفيفة المشي السريعة ، يقال : ناقة شِمْلال وشِمِلّة وشِمال وشِمْلِيل : خفيفة سريعة ، وجَمَل شِمْلال وشِمِلّ وشِمْلِيل : سريع . لسان العرب ، المعجم الوسيط / مادة : شمل .

(٢) فُضُول : جمع فَضْل ، وهو البقية من الشيء ، وما لا فائدة فيه . السابق / مادة : فضل .

(٣) يتيمة الدهر ١ / ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

وكأنها عبارة عن زفير ممتدّ قد جاء بعد شهيق طال حبسه ، يقول شيخ العربية الشيخ / محمود شاكر – رحمه الله – حينما وصل في تعليقه على هذا المقطع من تلك القصيدة : " ثم يَزْفِر المتنبي زفرته من جوف قلبه " (٤) ، ويقول ابن جني في تعليقه على البيت الأخير : " ينبغي أن يُلْحَق هذا البيت بالأمثال السائرة ؛ لما قد جَمَعَ فيه وأَوْجَزَ " (٥) .

وعبر المتنبي بأداة الشرط " لولا " في قوله :

لَوْلا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِقْدَامُ قَتَّالُ

للدلالة على امتناع جوابها – وهو سيادة الناس كلهم – لامتناع الشرط ، وهو المشقة التي تستلزم بذل المال ، والمخاطرة بالنفس .

وفي هذا البيت إيجاز بحذف خبر " لولا " الشرطية ، والتقدير : لولا المشقة التي تمنع من السيادة موجودة لصار الناس كلهم سادة .

واللام في كلٍّ من " المشقة " و " الجود " و " الإقدام " للدلالة على الجنس والحقيقة ، أي جنس هذه الأشياء وماهيتها بدون نظر إلى أفراد ، أما اللام في " الناس " فهي للاستغراق ، أي لساد كل فرد من أفراد جنس الناس .

وأكّد المتنبي الفاعل " الناس " بلفظة " كلهم " رفعًا لتوهم عدم إرادة العموم والشمول ؛ حتى لا يظن البعض أن المراد بالناس هنا أغلبهم ، أو البعض الذي يسدّ مَسَدّ الكل .

وفصلت جملة " الجُوْدُ يُفْقِرُ " عن جملة " لَوْلا المَشَقَّةُ سادَ النّاسُ كُلُّهم " ؛ لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال ، حيث إن الجملة الأولى أثارت سؤالًا تقديره : لماذا منعت المشقة من أن يسود الناس كلهم ؟ فجاءت هذه الجملة وجملة " الإقدام قَتّال " المعطوفة عليها جوابًا عن هذا السؤال ، وأفادتا أن الجود يفضي

(٤) المتنبي / ٣٦٧ .
(٥) الفَسْر ٣ / ٢٥٢ .

إلى الفقر والإقلال ، والإقدام يفضي إلى القتل والعَطَب ، ولا سيادة بدون الجود والإقدام .

وعطفت جملة " الإِقْدامُ قَتّال " على جملة " الجُوْدُ يُفْقِرُ " ؛ لما بينهما من التوسط بين الكمالين ، وذلك باتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى ، ولكونهما مشتركتين في تفسير المشقة ، ولكونهما يدلان على معنيين متلازمين هما غاية في المدح ، وهما الجود والإقدام ، ولا يتخلق بهما إلا من شرف طبعه ، ولا يتحملهما إلا من وَطَّنَ على المكاره نفسه .

وفي إسناد الإفقار إلى الجود والقتل إلى الإقدام مجاز عقلي ، علاقته السببية ؛ لأن الجود ليس فاعلًا للإفقار ، ولا الإقدام فاعلًا للقتل على وجه الحقيقة ، وإنما هما سببان ، الأول سبب في الإفقار والإقلال ، والثاني سبب في القتل والإتلاف ، وإنما تمّ الإسناد إليهما لقوتهما وأهميتهما في السببية ، فالجود أقوى أسباب الإقلال وأهمها ، والإقدام أقوى أسباب القتل وأهمها كذلك ، وفي هذا الإسناد ضرب رائع من التصوير والتخييل ، حيث صور الجود والإقدام بصورة الفاعلين الحقيقيين ، وبثّ فيهما روح الحياة والقوة حتى أصبح أحدهما مُفْقِرًا والآخر قَتّالًا

وحينما نتأمل هاتين الجملتين " الجُوْدُ يُفْقِرُ والإِقْدامُ قَتّال " نجد أن المتنبي جعل الإقدام أشد وأكثر مشقة من الجود ، حيث أخبر عن الجود بالفعل المضارع " يُفْقِرُ " ، وهو يدل على الحدوث والتجدد الاستمراري ، فأفاد أن الإفقار يحدث شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، وحينًا بعد حين ، وأخبر عن " الإقدام " بالاسم " قَتّال " ، وهو يدل على الثبوت والدوام ، أي أن قتل الإقدام لصاحبه أمر ثابت ودائم ، هذا بالإضافة إلى ما في التعبير بصيغة المبالغة " قَتّال " من الدلالة على المبالغة والتكثير في القتل .

وجاء المتنبي بجملة القصر " إنما يَبْلُغُ الإنْسانُ طاقَتَه " في قوله :

وَإِنَّمَا يَـــبْلُغُ الْإِنْسَانُ طَاقَتَهُ   مَا كُلُّ مَاشِيَـــةٍ بِالرَّحْلِ شِمْلالُ

و قصر فيها ما يبلغه الإنسان ويحققه من السيادة على قَدْر الطاقة ، ومبلغ الهِمّة ، ومقدار الاستطاعة ، واستخدم من طرق القصر " إنما " ؛ لأن المعنى الداخلة عليه حقيقة معلومة ومقررة ، وهو أمر مأنوس دان من القلوب ، ومألوف قريب من النفوس ، وهي – كما ذكر الدكتور / محمد أبو موسى – : " أداة رقيقة هامسة ،

لا تزعج النفوس لما دخلت عليه ، ولا ترفض ما جاء في وعائها " [(١)] ، والسياق هنا سياق تقرير لحقيقة معلومة ، واعتذار عَمَّنْ لم يَسُدْ من الناس لعجز طاقته وضعفها .

وجملة القصر هذه وإن كانت مرتبطة بمعنى البيت السابق باعتبارها اعتذارًا عَمَّنْ لم يَسُدْ إلا أن دخول الواو عليها يؤذن بأنها تستقل بمعنى جديد يصلح لأن يكون حكمة ذائعة ، أو مثلًا سائرًا .

وفي التعبير بالمضارع " يَبْلُغ " دلالة على الحدوث والتجدد الاستمراري ، أي أن بلوغ الإنسان طاقته يحدث شيئًا فشيئًا ، وحالًا بعد حال ، وحينًا بعد حين على وجه الاستمرار .

واللام في لفظة " الإنسان " للدلالة على الجنس ، أي جنس الإنسان وحقيقته بدون النظر إلى أفراد ذلك الجنس ، وتحتمل أن تكون للاستغراق ، فتستوعب جميع الأفراد ، ويراد بدخولها كل فرد من أفراد جنسه ، أي كل فرد من أفراد جنس الإنسان ، أما اللام في لفظة " الرَّحْل " فهي للجنس .

وفصلت جملة " ما كلُّ ماشيةٍ بالرَّحْلِ شِمْلال " عن جملة " إنَّما يَبْلُغُ الإنْسانُ طاقَتَه " ؛ لما بين الجملتين من شبه كمال الاتصال ، حيث إن الجملة الأولى أثارت

---

(١) دلالات التراكيب / ١٤٨ .

سؤالًا تقديره : لماذا لم يبلغ الإنسان في السيادة ، ويَجْرِ فيها إلا على قدر طاقته فقط ؟ وجاءت الجملة الثانية كالجواب عن هذا السؤال ، وكالبرهان الدالّ على صحة المعنى الذي تضمنته الجملة الأولى .

وقَدَّمَ المتنبي أداة النفي " ما " على أداة العموم " كل " في جملة " ما كلُّ ماشيةٍ بالرَّحْلِ شِمْلال " للدلالة على نفي العموم ، وهذا يقتضي أن يكون هناك من النوق الماشية بالرَّحْل شِمْلالٌ خفيفة سريعة ، وذلك بخلاف ما لو قَدَّمَ أداة العموم على أداة النفي فقال – مثلًا – : " كل ماشية بالرحل ليست شِمْلالًا " ؛ لأن ذلك يقتضي عموم النفي ، فيدل على أنه لا يوجد من جنس النوق ما تصلح لأن تكون شِمْلالًا .

وفي هذا البيت تشبيه ضمني رائع وبليغ ، حيث شبه المتنبي حال الإنسان مع السيادة في أنه لا يبلغ منها إلا قَدْر طاقته واستطاعته ، ومبلغ إمكانه وهمته ، وأنه ليس كل كريم يبلغ غاية الكرم ، ولا كل شريف يبلغ نهاية الشرف بحال الناقة التي تحمل الرَّحْل ، فليست كل ناقة ماشية بالرحل شِمْلالًا سريعة ، وإنما تمشي كل ناقة بالرَّحْل على قَدْر قدرها واستطاعتها ، وكأن المتنبي يعتذر بهذا البيت عَمَّنْ لم يَسُدْ ، ويشير أيضًا إلى أن ممدوحه بلغ من السيادة بعِظَم طاقته ، وعلوّ همته ، وجلالة قَدْره ، وفخامة شأنه مبلغًا عظيمًا حتى أصبح لا يعادل في فضله ، ولا يشابه في مجده ، ولا يماثل في جلالة قَدْره !!!

وقال ابن جني – وهو الناقد البصير بشعر المتنبي – معلقًا على هذا البيت والبيت السابق مبديًا استحسانه لهما ، وموضحًا إبداع المتنبي وإجادته فيهما : " وما قَصَّرَ في هذين البيتين " [٢] .

وأتى المتنبي بقوله :

إِنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرْكُ الْقَبِيحِ بِهِ مِـــنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسانٌ وَإِجْمَالُ

(٢) الفَسْر ٣ / ٢٥٢ .

مُؤَكَّدًا بـــ " إنّ " واللام ؛ لأنه ضَمَّنه معنى عجيبًا وخبرًا غريبًا ، وهو أنه من إدبار خير الزمان ، وزهد أهله في الفضل والإحسان أصبح في زمن مَنْ يكفّ فيه أذاه ، ويمسك شرّه عن غيره ، ولم يعامله بالقبيح فقد أحسن إليه ؛ لأن فعل الإحسان في هذا الزمان أصبح لا يطمع فيه ، والإمساك عن قبيح الفعل ومذموم السعي صار يُعَدُّ إحسانًا يحمد ويشكر .

ولعل المتنبي قد أخذ هذا المعنى من قول الحكيم : " **مَنْ لَمْ يَقْدِرْ على فِعْلِ الفَضائِلِ فَلْتَكُنْ فَضائِلُهُ في تَرْكِ الرَّذائِلِ** " (١) .

وأخذه أبو فراس الحَمْدانيّ فقال :

وصِرْنا نَرَى أَنَّ المُتارِكَ مُحْسِنٌ وأنَّ صَدِيقًا لا يُضِـــرُّ خَلِيلُ (٢)

وفي هذا البيت كناية عن غرابة الممدوح في دهره ، وانفراده بالكرم عن أبناء عصره ، وقد تَلَطَّفَ المتنبي بالاحتراس في قوله : " من أكثر الناس " ؛ ليخرج الممدوح من تلك الحقيقة التي ذكرها وقررها في هذا البيت .

وفي تنكير لفظة " زمن " دلالة على تحقير ذلك الزمن الذي صار فيه الشاعر ، والتقليل من شأنه ، حيث أصبح ترك القبيح فيه من أكثر الناس يُعَدُّ إجمالًا يُحْمَد ، وإحسانًا يُشْكَر .

ووصف الزمن بجملة " تَرْكُ القبيحِ به من أَكْثَرِ النّاسِ إِحْسانٌ وإِجْمالُ " تخصيصًا للموصوف ، وتقليلًا للاشتراك ، وإزالة للعموم ؛ لأن النكرة بحسب وضعها تحتمل كل فرد من أفراد جنسها .

واللام في كلٍّ من " القبيح " و " الناس " للدلالة على الجنس ، أي جنس كل واحد منهما وحقيقته بدون النظر إلى أفراد أي جنس منهما .

---

(١) التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٨٨ ، وينظر : التذكرة الحَمْدونيّة ١ / ٢٨٠ / لابن حمدون / تحقيق : إحسان عباس ، بكر عباس / دار صادر / بيروت / الطبعة الأولى / ١٩٩٦م .

(٢) ديوان أبي فراس / ١٩٠ / من الطويل / تحقيق : د / عمر فاروق الصَّبّاع / دار الأرقم بن أبي الأرقم/ بيروت / لبنان / بدون تاريخ .

وعطف المتنبي الـــ " إجمال " على الـــ " إحسان " عطف ترادف وتفسير تأكيدًا ومبالغة في المعنى ، وتكثيرًا من وسائل الإخبار عما في النفس ، وتفننًا في التعبير ، وتلوينًا في العبارة ، ومراوحة في الأسلوب .

ثم جاء المتنبي بحسن ختام هذه القصيدة في قوله :

ذِكْرُ الْفَتَى عُمْرُهُ الثَّانِي وَحَاجَتُهُ مَا قَاتَهُ وَفُضُولُ [٣] الْعَيْـــشِ أَشْغَالُ

وجمع في هذا البيت – كما قال ابن جني – : " ما يُعْجِز كلَّ من يَدَّعِي الشعر والحكمة والكلام الشريف " [٤] ، فالبيت قد جاء في ثلاث جمل ، كل جملة بمثابة المثل السائر ، والحكمة الذائعة ، إذ كل جملة تقرر مع إيجازها قاعدة عامة ، ومعنى جامعًا ، وحقيقة ثابتة مقررة ، وهو يشير في هذا البيت " إلى ما خَلَّده فاتك من الفضل ، وأبقى له من جميل الذكر ، وأن التوفيق في ذلك موصول برأيه ، والصواب مقصور على فعله " [١] .

وهنا شبه المتنبي ذكر الفتى بعد موته بجميل فضله ومساعيه ، وما يُخَلِّده كرمه ومعاليه ، وما يسجله من مفاخر وأمجاد بالعمر الثاني ، وصاغ المتنبي هذا التشبيه محذوف الوجه والأداة إيذانًا بدعوى الاتحاد بين كلٍّ من المشبه والمشبه به ؛ لأن حذف الوجه يُوَسِّع دائرة احتماله ، ويشعر بأن المشبه يشبه المشبه به في كل صفاته ، وحذف الأداة يدل على تأكيد دعوى الاتحاد بين طرفي التشبيه ، وكأن الكلام أصبح حقيقة ، وليس تشبيهًا .

ولا يخفى أن صياغة التشبيه محذوف الوجه والأداة تجعله أوجز في اللفظ ، وأقوى وأبلغ في الدلالة على المقصود ، وأشدّ وَقْعًا في النفس لإيهامه أن المشبه هو عين المشبه به .

---

(٣) فضول : جمع فَضْل ، وهو البقية من الشيء ، وما لا فائدة فيه . السابق / مادة : فضل .
(٤) معجز أحمد ٤ / ٢١٩ .
(١) التبيان في شرح الديوان ٣ / ٢٨٨ .

واللام في " الفتى " تحتمل أن تكون للدلالة على الجنس ، فلا يقصد بها فتى بعينه ، وتحتمل أن تكون للدلالة على العهد الذهني ، ويكون المقصود بالفتى هنا الفتى المعهود في ذهن الشاعر ، وهو الممدوح ، وعبر عنه بلفظ " الفتى " لقوته وفُتُوَّته .

ومعنى تشبيه ذكر الإنسان بعد موته بالعمر الثاني قد أخذه أمير الشعراء أحمد شوقي في قوله في رثاء مصطفى كامل :

فارفعْ لنَفْسِكَ بَعْدَ مَوْتِكَ ذِكْرَها فالذِّكْرُ للإِنْسانِ عُمْرٌ ثانِ (٢)

وعطفت جملة " حاجته ما قاتَه " على جملة " ذِكْرُ الفتى عُمْرُهُ الثاني " ؛ لما بين الجملتين من التوسط بين الكمالين ، وذلك لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى ، وكونهما اسميتين ، وكون كلٍّ منهما تتضمن معنى شريفًا وعظيمًا ، وكون المُتَحَدَّث عنه في الجملتين واحدًا وهو ذلك الفتى ، هذا بالإضافة إلا ما بين معنييهما من تناسب ، فالجملة الأولى أفادت أن ذكر الإنسان بعد موته بجميل آثاره ومساعيه ، وحسن أفعاله ومكارمه يكون بمثابة العمر الثاني له ، والجملة الثانية أفادت ما يلزم الإنسان ويحتاج إليه في دنياه ، وهو كفاف من العيش يستره ، وقوت يُبَلِّغه حاجته ، ويقيم أَوَده .

وعطفت جملة " وفضول العيش أشغال " على جملة " حاجته ما قاتَه " ؛ لما بينهما أيضًا من التوسط بين الكمالين باتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنى ، وكونهما اسميتين ، هذا بالإضافة إلى أن الجملة الأولى أفادت ما يحتاج إليه الفتى في دنياه ، وهو قَدْر القوت الذي يُبَلِّغه حاجته ، ويَسُدّ رَمَقه ، والجملة الثانية بَيَّنَتْ وأوضحت حكم فضول العيش التي زادت عن حاجة الإنسان من القوت ، وأخبرت بأن هذه الزيادة ما هي إلا فضول تشغل صاحبها ، وأباطيل وسفاسف تلهيه عن تحقيق معالي الشرف والعظمة ، وتشغله عن إدراك منازل المجد والسؤدد

(٢) الشوقيات ٣ / ١٥٨ / الكامل .

ونلحظ هنا أن الشاعر يُزَهِّد الممدوح في جمع المال ، ويحثه على إدراك المعالي والمفاخر ، وتحصيل المكارم والفضائل التي تُعْلِي شأنه في حياته ، وتبقي ذكره بعد مماته ؛ لأن المال فانٍ ، ومن السهل تحصيله وإدراكه إذا ما قيس بصعوبة إدراك العُلا ، وتحقيق ما يرفع الشأن ، ويُخَلِّد الذكر ، وليس هذا تقليلًا من شأن المال ، ولكنه يرشده إلى أن يولي العناية للأهم ، فإن اجتمع الأهم والمهم فبها ونِعْمَتَ ، وإلّا فكيف يقلل المتنبي من شأن المال ؟ وهو القائل :

فَلا مَجْدَ في الدُّنْيا لَمَنْ قَلَّ مالُهُ ولا مالَ في الدُّنْيا لَمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ (١)

وفي رواية ذكرها المعري " حاجته ما فاتَه " – بالفاء – أي أن الإنسان محتاج أبدًا إلى تحقيق ما لم يُعْطَه ، وإدراك ما لم يَنَلْه ، أما ما أُعْطِيه وأدركه وناله فلا حاجة به إليه .

ولعل أبا الطيب نظر في هذا البيت إلى قول سالم بن وابصة – رضي الله عنه – :

غِنَى النَّفْسِ ما يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ حاجةٍ فَإِنْ زادَ شَيْئًا عادَ ذاكَ الغِنَى فَقْرَا (٢)

إلا أن المتنبي قد استوفى جميع ما ذكره سالم ، وزاد عليه زيادة حسنة بقوله : " ذِكْرُ الفتى عُمْرُهُ الثاني " .

(١) ديوان المتنبي / ٤٥٤ / من الطويل .
(٢) شرح ديوان الحماسة ٣ / ١١٤٣ / من الطويل / للمرزوقي / تحقيق : أحمد أمين ، عبد السلام محمد هارون / دار الجيل / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤١١ هـ - ١٩٩١م .

الخـــــاتـــمة

في نهاية هذه الدراسة الشائقة ، وبعد هذه الجولة التي طَوَّفْتُ فيها مع مفخرة العرب ، وشاعرها المُتَفَرِّد ، وشاعر العربية الأكبر أبي الطيب المتنبي من خلال دُرّة من دُرره ، وهي لاميته في مدح أبي شجاع فاتك الملقّب بالمجنون لفَرْط شجاعته فقد بدا وتأكّدَ لي أن المتنبي " قد اتخذ في مدح أبي شجاع سبيلًا سواء لا تَعوُّج فيه ولا التواء " [1] ، كما بدا لي أيضًا ما لهذا الموضوع من أهمية جليلة ، وجدوى عظيمة ؛ وذلك لما اشتملت عليه هذه اللامية من أسرار بلاغية عالية ، ورموز بيانية سامية ، وفوائد غالية ، ولطائف رائعة ، ومعان رائقة أسهمت في بلاغة الأسلوب شكلًا ومضمونًا ، وحققت فائدتي الإقناع والإمتاع .

هـــــذا ، ولقد سار هذا البحث الذي لم آلُ فيه جهدًا ، ولم أدخر فيه وسعًا مع هذه الدرة المكنونة ، والجوهرة المصونة ، تلك اللامية العظيمة والمجيدة لهذا الشاعر المطبوع العملاق الذي كان ينطق بألسنة الحدثان ، ويتكلم بخاطر كل إنسان دراسة بلاغية تحليلية كشفًا عما تضمنته من صور وأسرار ورموز ، واشتملت عليه من فوائد ولطائف ودقائق ، ثم استقر البحث وقد أسفر عن عدة نتائج وتوصيات ، من أهمها ما يلي :

١- أن عبقرية المتنبي عبقرية خلّاقة ومتميزة ، وقريحته قريحة منتجة وفعّالة ، وشعره مُغْرٍ بالاقتراب مهما بدا الطريق وَعْرًا وشاقًّا ومهما كان السبيل عسيرًا وصعبًا ، ومهما تعددت مناهج الدارسين حول إبداعه الشعري ، ومع إدراكنا بصعوبة المسلك ، وعلمنا بوعورة الطريق تجدنا أشد ما نكون حبًّا وشغفًا بدراسة هذه اللامية التي تمثل غَيْضًا من فَيْض عطائه ، وقطرة من بحر إبداعه ، ودرة من عِقْد دُرره وجواهره .

٢- أن المتنبي كان يخترع المعاني ويتغلغل فيها ويستوفيها ، وأن عبارته عميقة المعاني ، ومفعمة بالأسرار والرموز، ومنطوية على الكثير من الفوائد واللطائف ، الأمر الذي يتطلب من الباحث الذي يقتحم نصوص هذا الشاعر إعمال الفكر ، ومعاودة النظر ، وطول البحث ، وتكرار التأمل ، وتعداد القراءة ، ولله درّ أبي نواس حيث قال :

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إذا ما زِدْتَهُ نَظَرَا [1]

ولـــــــذا فإني أوصي من يقترب من إبداع المتنبي ، ويقتحم نصوصه أن يتسلح بالصبر ، ويتدرع بالجدّ ، ويتزود برهافة الحسّ ، وسعة الاطلاع .

---

(١) مع المتنبي / ٣٢٥ .

(١) شرح ديوان أبي نواس ١ / ٥٤٦ / من الوافر / إيليا الحاوي / دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب العالمي / بيروت / لبنان / ١٩٨٧م .

٣- أن هذه اللامية قد جاءت متماسكة البناء ، بديعة السبك ، جيدة الوصف ، محكمة الرصف ، مختارة الألفاظ ، شريفة المعاني ، وغير ذلك كثير وكثير مما يثير الإعجاب ، ويلفت الانتباه ، ويؤكد إبداع المتنبي الوثّاب الخلّاق .

٤- ولع المتنبي بالألفاظ الغريبة في بعض الأحيان ، مثل : " تَصْهال " و " بُخّال " و " السّاع " و " النّال " و " التّنْبال" ، لكنه كان يسكب عليها من الأحاسيس والمشاعر ما يجعلها عَذبة مألوفة في مكانها ، و حسنة بليغة في موقعها ، يقول ابن جني معلقًا على استعماله لفظة التنبال في البيت التاسع الثلاثين من هذه اللامية : " ولو لم يُسْتَدَلّ على عذوبة شعر هذا الرجل ، وحسن صنعته إلا بما يستعمله من هذه الألفاظ الغريبة القليلة الاستعمال ، ثم نجدها مع ذلك مستقرة في أماكنها غير قَلِقة ولا نافرة "[٢] ؛ ولذا فإني أوصي الدارس لشعر المتنبي أن يطيل التأمل والنظر في هذه الألفاظ الغريبة ومواقعها قبل الحكم عليها .

٥- شيوع الحكمة وإرسال المثل في هذه اللامية ، وهي تأتي غالبًا على صورة الجملة الاستئنافية في عَجُز البيت بعد أن يمهد لها في صدره ؛ لتقرر قاعدة عامة ، وتؤسس معنى شاملًا ، وهي حكمة قد استقاها من تجاربه واطلاعه ، قوامها غالبًا فلسفة القوة التي حدت به إلى نبذ الجبن والخَوَر ، والطموح الوثّاب في قلبه ، والرغبة بالمغامرة إلى حد المخاطرة ، يقول حازم القَرْطاجَنّي عن كيفية صياغة المتنبي لحِكَمه : " إنه كان يُوَطّئ صدور الفصول للحِكَم التي يوقعها في نهايتها ، وذلك مَنْزَع اختصّ به ، أو اختصّ بالإكثار منه "[١] .

٦- كثرة المبالغة المقبولة في هذه اللامية ، ولكنها قد تخرج في بعض الأحيان عن حد القبول ، فيأتي المتنبي عليها ويقرنها بما يقربها من القبول كما في قوله :

لَوِ اشْـــتَهَتْ لَحْمَ قارِيهَا لَبَادَرَهَا

خَرَادِلٌ مِنهُ في الشِّـــيْزَى وَأَوْصَالُ

حيث قرنها بأداة الشرط " لو " التي تفيد امتناع جوابها لامتناع شرطها .

وبعـــد ، فهذه اللامية تعدّ من غُرَر المتنبي ودرره ، وجواهر عقده ولآلئه ، وإذا كانت دراستي لها في هذا البحث قد أسفرت عن هذه النتائج فربما بقيت هناك نتائج أخرى مرهونة بمعاودة القراءة ، وربما أسفرت كل قراءة جديدة عن شيء جديد يزيد من كشف محاسن هذه اللامية ، ومكنون أسرارها ، وتلك سمة الأدب الخالد .

---

(٢) الفَسْر ٣ / ٢٥١ / وجواب الشرط في عبارة ابن جني هذه محذوف تقديره : لكفى ذلك دليلًا على عذوبة شعره ، وحسن صنعته .

(١) منهاج البلغاء / ٣٦٦ .

وما بذلته هنا من جهد في هذا البحث – بما فيه من قصور يشفع له حسن النية ، وإخلاص الطويّة ، وصدق العزيمة – أقلّ بكثير مما يمكن أن يقدم لهذا الشاعر العظيم العملاق ، وأعتذر عن تقصيري ، ولكن عزائي الأكبر هو أنني أحببت المتنبي ، وأخلصت له في جهدي ، ولم أبخل عليه بما عندي ، ولم آلُ في ذلك جهدًا ، ولم أدّخر وسعًا .

وما وجد في هذا البحث من هنات فمن نفسي ، وما وجد من حسنات فذلك من مَنّ الله وفضله ؛ ولذلك لا يسعني في الختام إلا أن أستميح القارئ العفو عن الزلّات ، والإغضاء عن الهفوات ، والتجاوز عن الكبوات ، وإقالة العثرات ، ولله درّ شاعر النيل حافظ إبراهيم حيث قال :

لا تَلُمْ كَفِّي إذا السَّيْفُ نَبا .. صَحَّ مِنِّي العَزْمُ والدَّهْرُ أَبَي (٣)

(٣) ديوان حافظ إبراهيم ٢ / ٧ / من الرمل / تحقيق : أحمد أمين ومن معه / الهيئة العامة لقصور الثقافة / القاهرة / الطبعة الثانية / ٢٠٠٢ م .

فهرس المصادر والمراجع

١- أساليب النفي في القرآن / د / أحمد ماهر البقري / دار المعارف / القاهرة / ١٩٨٠م .

٢- الأعلام / للزركلي / دار العلم للملايين / بيروت / لبنان / الطبعة الخامسة عشرة / ٢٠٠٢ م .

٣- أمراء الشعر العربي / أنيس المقدسي / دار العلم للملايين / بيروت / لبنان / الطبعة الثامنة عشرة / ١٩٩٤ م .

٤- أنوار الربيع / لابن معصوم المدني / تحقيق : شاكر هادي شكر / مطبعة النعمان / النجف الأشرف / الطبعة الأولى / ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م .

٥- الإيضاح / للخطيب القزويني / تحقيق : د / محمد عبد المنعم خفاجي ، د / عبد العزيز شرف / دار الكتاب المصري / القاهرة ، دار الكتاب اللبناني / بيروت / الطبعة السادسة / ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

٦- بحوث المطابقة لمقتضى الحال / د / على البدري / المكتبة الحسينية / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م .

٧- البداية والنهاية / لابن كثير / تحقيق : د / عبد الله بن عبد المحسن التركي / دار هجر / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م .

٨- بغية الإيضاح / لعبد المتعال الصعيدي / مكتبة الآداب / القاهرة / الطبعة السابعة عشرة / ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م .

٩- بغية الطلب / لابن العديم / تحقيق : د / سهيل زكار / دار الفكر / بيروت / لبنان / بدون تاريخ .

١٠- تاج العروس / للزبيدي / تحقيق : عبد الستار أحمد فراج /مطبعة حكومة الكويت / ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥م .

١١- تاريخ دمشق / لابن عساكر / تحقيق محب الدين العمري / دار الفكر / بيروت / لبنان / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

١٢- التبيان في علم المعاني والبديع والبيان / للطيبي / تحقيق : د / هادي عطية مطر الهلالي / عالم الكتب / بيروت ، مكتبة النهضة العربية / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

١٣- التبيان في شرح الديوان / للعكبري / تحقيق : مصطفى السقا وآخرين / مطبعة الحلبي / القاهرة / ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م .

١٤- تحرير التحبير / لابن أبي الإصبع / تحقيق : د / حفني محمد شرف / المجلس الأعلى للشئون الإسلامية / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م .

١٥- التذكرة الحَمْدونيّة / لابن حمدون / تحقيق : إحسان عباس ، بكر عباس / دار صادر / بيروت / الطبعة الأولى / ١٩٩٦م .

١٦- الجنى الداني / للمرادي / تحقيق : د / فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل / دار الآفاق الجديدة / بيروت / الطبعة الثانية / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

١٧- جواهر البلاغة / للهاشمي / تحقيق : د / يوسف الصميلي / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت / ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٢ م .

١٨- خزانة الأدب / للبغدادي / تحقيق : عبد السلام محمد هارون / مكتبة الخانجي / القاهرة / الطبعة الرابعة / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م .

١٩- خزانة الأدب وغاية الأرب / لابن حجة الحموي / تحقيق : عصام شعيتو / دار ومكتبة الهلال / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٩٨٧ م .

٢٠- الخصائص / لابن جني / تحقيق : محمد علي النجار / المكتبة العلمية / بدون تاريخ .

٢١- خصائص التراكيب / د / محمد أبو موسى / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الرابعة / ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م .

٢٢- دراسات منهجية في علم البديع / د / الشحات محمد أبو ستيت / دار خفاجي / قليوبية / الطبعة الأولى / ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م .

٢٣- دلائل الإعجاز / لعبد القاهر الجرجاني / تحقيق : محمود محمد شاكر / مطبعة المدني / القاهرة ، دار المدني / جدة / الطبعة الثالثة / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢م .

٢٤- دلالات التراكيب / د / محمد أبو موسى / مكتبة وهبة / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م .

٢٥- دلالة الألفاظ / د / إبراهيم أنيس / مكتبة الأنجلو المصرية / القاهرة / الطبعة السادسة / ١٩٨٦م .

٢٦- ديوانا عُرْوة بن الورد والسَّمَوْأل / دار بيروت / بيروت / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م .

٢٧- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي / تحقيق : محمد عبده عزّام / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الرابعة / بدون تاريخ .

٢٨- ديوان أبي القاسم الشابي / شرح : أحمد حسن بَسَج / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الرابعة / ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م .

٢٩- ديوان أبي فراس / تحقيق : د / عمر فاروق الصّبّاع / دار الأرقم بن أبي الأرقم / بيروت / لبنان / بدون تاريخ .

٣٠- ديوان حافظ إبراهيم / تحقيق : أحمد أمين ومن معه / الهيئة العامة لقصور الثقافة / القاهرة / الطبعة الثانية / ٢٠٠٢ م .

٣١- ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السِّكِّيت / تحقيق : د / مفيد محمد قميحة / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م .
٣٢- ديوان صفيّ الدين الحِلِّي / دار صادر / بيروت / بدون تاريخ .
٣٣- ديوان المتنبي / المكتبة الثقافية / بيروت / لبنان / بدون تاريخ .
٣٤- ديوان الخنساء دراسة وتحقيق / د / إبراهيم عوضين / دار السعادة / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م .
٣٥- ديوان ابن الرومي / شرح : أحمد حسن بَسَج / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الثالثة / ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢م .
٣٦- الرائد / جبران مسعود / دار العلم للملايين / بيروت / لبنان / الطبعة السابعة / ١٩٩٢م .
٣٧- رسالة الغفران / للمعري / تحقيق : د / عائشة عبد الرحمن / دار المعارف / القاهرة / الطبعة التاسعة / بدون تاريخ .
٣٨- سيَر أعلام النبلاء / للذهبي / تحقيق : شعيب الأرنؤوط ، أكرم البوشي / مؤسسة الرسالة / بيروت / الطبعة الحادية عشرة / ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م .
٣٩- شرح التصريح على التوضيح / للأزهري / تحقيق : محمد باسل عيون السود / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .
٤٠- شرح ديوان أبي نواس / إيليا الحاوي / دار الكتاب اللبناني ، دار الكتاب العالمي / بيروت / لبنان / ١٩٨٧م .
٤١- شرح ديوان الحماسة / للمرزوقي / تحقيق : أحمد أمين ، عبد السلام محمد هارون / دار الجيل / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤١١ هـ - ١٩٩١م .
٤٢- شرح ديوان المتنبي / لعبد الرحمن البرقوقي / دار الكتاب العربي / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م .
٤٣- شرح عقود الجمان / للسيوطي / دار الفكر / بيروت / لبنان / بدون تاريخ .
٤٤- شرح الواحدي / لأبي الحسن بن أحمد الواحدي / تحقيق : فريدخ ديتريصي / طبعة برلين / ١٢٧٧ هـ - ١٨٦١م .
٤٥- شموس العرفان بلغة القرآن / عباس أبو السعود / دار المعارف / القاهرة / بدون تاريخ .
٤٦- الشوقيات / لأحمد شوقي / دار العودة / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٩٨٨م .
٤٧- الصبح المنبي / للبديعي / تحقيق : مصطفى السقا ، محمد شتا / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثالثة / بدون تاريخ .

٤٨- العَرْف الطَّيِّب / لناصيف اليازجي / دار صادر / بيروت / الطبعة الثانية / ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م .

٤٩- عروس الأفراح / للسبكي / ضمن شروح التلخيص / دار السرور / بيروت / لبنان / بدون تاريخ .

٥٠- علم المعاني / د / بسيوني فيّود / مؤسسة المختار / القاهرة ، دار المعالم الثقافية / الأحساء / الطبعة الثانية / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م .

٥١- علم المعاني / د / صبّاح دراز / مطبعة التركي / طنطا / بدون تاريخ .

٥٢- العمدة / لابن رشيق / تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الجيل / بيروت / لبنان / الطبعة الخامسة / ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م .

٥٣- العود الهندي / لعبد الرحمن بن عبيد الله السقّاف / تحقيق : محمد مصطفى الخطيب / دار المنهاج / جدة / الطبعة الثانية / ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .

٥٤- الفروق اللغوية / لأبي هلال العسكري / تحقيق : محمد إبراهيم سليم / دار العلم والثقافة / القاهرة / بدون تاريخ .

٥٥- الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم / د / محمد بن عبد الرحمن الشايع / مكتبة العبيكان / الرياض / الطبعة الأولى / ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م .

٥٦- الفَسْر / لابن جني / تحقيق : د / رضا رجب / دار الينابيع / دمشق / الطبعة الأولى / ٢٠٠٤م .

٥٧- الفن ومذاهبه في الشعر العربي / د / شوقي ضيف / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثانية عشرة / بدون تاريخ .

٥٨- في التحليل اللغوي / د / خليل أحمد عمايرة / مكتبة المنار / الأردن / الزرقاء / الطبعة الأولى / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م .

٥٩- فيض القدير شرح الجامع الصغير / لعبد الرءوف المناوي / دار المعرفة / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية / ١٣٩١ هـ - ١٩٧٢م .

٦٠- القاموس المحيط / للفيروزآبادي / دار الفكر / بيروت / لبنان / ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م .

٦١- الكتاب / لسيبويه / تحقيق : عبد السلام محمد هارون / مكتبة الخانجي / القاهرة ، دار الرفاعي / الرياض / الطبعة الثانية / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

٦٢- كتاب الصناعتين / لأبي هلال العسكري / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت / ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م .

٦٣- لسان العرب /لابن منظور / دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية /١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م .
٦٤- لسان الميزان / لابن حجر العسقلاني / تحقيق : عبد الفتاح أبوغدّة / دار البشائر الإسلامية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م .
٦٥- المتنبي / لمحمود شاكر/ مطبعة المدني / القاهرة ، دار المدني / جدة / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م .
٦٦- مجلة المجلة / عدد نوفمبر / ١٩٦٩م .
٦٧- المخصص / لابن سيده / المطبعة الكبرى الأميرية / ببولاق مصر المحمية / الطبعة الأولى / ١٣١٦ هـ .
٦٨- معجز أحمد / للمعري / تحقيق : د / عبد المجيد دياب / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثانية / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
٦٩- معجم اللغة العربية المعاصرة / د/أحمد مختار عمر ومن معه /عالم الكتب / القاهرة /الطبعة الأولى / ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨م .
٧٠- المعجم الوسيط / مجمع اللغة العربية / مكتبة الشروق الدولية / الطبعة الرابعة / ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م .
٧١- مع المتنبي / د / طه حسين / دار المعارف / القاهرة / الطبعة الثانية عشرة / بدون تاريخ .
٧٢- مغني اللبيب / لابن هشام / تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد / دار الطلائع / القاهرة / ٢٠٠٥ م .
٧٣- من بلاغة النظم القرآني / د / بسيوني فيود / مؤسسة المختار / القاهرة / الطبعة الأولى / ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م .
٧٤- منهاج البلغاء وسراج الأدباء / لحازم القرطاجنّي / تحقيق : محمد الحبيب بن الخوجة / تونس / ١٩٦٦م .
٧٥- المُوْضح في شرح شعر أبي الطيب المتنبي / لأبي زكريا يحيى بن علي التبريزي / تحقيق : / خلف رشيد نعمان / دار الشئون الثقافية العامة / بغداد / الطبعة الأولى / ٢٠٠٤م .
٧٦- نتائج الفكر / للسهيلي / تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد مُعَوّض / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى / ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م .
٧٧- النجوم الزاهرة / لابن تغرى / تحقيق : محمد شمس الدين / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .

٧٨- النحو الوافي / د / عباس حسن / دار المعارف / مصر / الطبعة الثالثة / بدون تاريخ .

٧٩- الوساطة بين المتنبي وخصومه / للقاضي الجرجاني / تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي / المكتبة العصرية / صيدا / بيروت / الطبعة الأولى / ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م .

٨٠- الوشي المرقوم / لابن الأثير / تحقيق : يحيى عبد العظيم - ضمن سلسلة الذخائر - العدد : ١٢١ / أول يوليو / ٢٠٠٤ هـ / الهيئة العامة لقصور الثقافة / مصر .

٨١- وفيات الأعيان / لابن خلّكان / تحقيق : د / إحسان عباس / دار صادر / بيروت / بدون تاريخ.

٨٢- يتيمة الدهر / للثعالبي / تحقيق : د / مفيد محمد قميحة / دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان / الطبعة الثانية / ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
التمهيد	٧
أولًا – التعريف بالمتنبي	٧
اسمه ونسبه	٧
مولده	٧
نشأته	٧
تلقيبه بالمتنبي	٨
اتصاله بالأمراء	٩
وفاته	١٠
شعره	١٠
ثانيًا – التعريف بالممدوح	١١
ثالثًا – مناسبة القصيدة وتاريخها ونصها	١٢
المبحث الأول : إحسان أبي شجاع إلى المتنبي وشكر المتنبي له	١٥
المبحث الثاني : شجاعة أبي شجاع وحكمته	٣٩
المبحث الثالث : كرم أبي شجاع	٦٢
المبحث الرابع : شجاعة أبي شجاع	٧٨
المبحث الخامس : حكمة شخصية أبي شجاع وعظمتها	١٠٤
المبحث السادس : من بدائع حِكَم المتنبي	١١٩
الخاتمة	١٢٨
فهرس المصادر والمراجع	١٣٢
فهرس الموضوعات	١٤٠